التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الإسراء

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

(الجزء الخامس عشر)



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء ، أسأل الله - عز وجل - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة فى ٥ / ١ / ١٤٠٤هـ
الموافق ١٠/١٠/١٩٨٣م

المؤلف
د . محمد السيد طنطاوى

تعريف بسورة الإسراء

١ – سورة الإسراء هى السورة السابعة عشرة فى ترتيب المصحف، فقد سبقتها سورة : الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء ... ألخ .

أما ترتيبها فى النزول، فقد ذكر السيوطى فى الإتقان أنها السورة التاسعة والأربعون، وأن نزولها كان بعد سورة القصص[1] .

٢ - وتسمى – أيضا – بسورة بنى إسرائيل، وبسورة «سبحان» . وعدد آياتها عند الجمهور إحدى عشرة آية ومائة، وعند الكوفيين عشر آيات ومائة آية .

٣ – ومن الأحاديث التى وردت فى فضلها، مارواه البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه قال فى بنى إسرائيل، والكهف ومريم؛ إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادى[2] .

والعتاق : جمع عتيق وهو القديم، وكذلك التالد بمعنى القديم . ومراده – رضى الله عنه – أن هذه السور من أول ماحفظه من القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان أبى لبابة، قال : سمعت عائشة – رضى الله عنها – تقول : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصوم حتى نقول : مايريد أن يفطر، ويفطر حتى تقول : مايريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة: «بنى إسرائيل» و«الزمر»[3] .

٤ – ومن وجوه مناسبة هذه السورة لما قبلها، ماذكره أبو حيان بقوله: «ومناسبة هذه لما قبلها، أنه – تعالى – لما أمره – فى آخر النحل – بالصبر،

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص٢٧ طبعة المشهد الحسينى .
(٢، ٣) تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ٣ ـ طبعة مكتبة الشعب .

ونهاه عن الحزن عليهم ، وعن أن يضيق صدره من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر ، وغير ذلك مما رموه به ، أعقب - تعالى - ذلك بذكر شرفه ، وفضله ، واحتفائه به ، وعلو منزلته عنده »[1] .

٥ — وسورة الإسراء من السور المكية ، ومن المفسرين الذين صرحوا بذلك دون أن يذكروا اختلافا فى كونها مكية . الزمخشرى ، وابن كثير ، والبيضاوى ، وأبو حيان ...

وقال الآلوسى : وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور ، وقال صاحب الغينان: بإجماع .

وقيل . هى مكية إلا آيتين : « وإن كانوا ليفتنونك ... وإن كادوا ليستفزونك ... »

وقيل إلا أربعا ، هاتان الآيتان ، وقوله — تعالى — « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... »

وقوله — سبحانه — : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق ... »[2] .

والذى تطمئن إلية النفس ان سورة الإسراء بتمامها مكية - كما قال جمهور المفسرين - لأن الروايات التى ذكرت فى كون بعض آياتها مدنية ، لا تنهض دليلا على ذلك لضعفها ...

والذى يغلب على الظن أن نزول هذه السورة الكريمة ، أو نزول معظمها، كان فى أعقاب حادث الإسراء والمعراج .

وذلك لأن السورة تحدثت عن هذا الحادث، كما تحدثت عن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم- حديثا مستفيضا، وحكت إيذاء المشركين له ،وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، كمطالبتهم إياه بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ...

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص ٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢ .

وقد ردت السورة الكريمة على كل ذلك، بما يسلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويثبته، ويرفع منزلته، ويعلى قدره ... فى تلك الفترة الحرجة من حياته - صلى الله عليه وسلم- وهى الفترة التى أعقبت موت زوجه السيدة خديجة -رضى الله عنها- وموت عمه أبى طالب ...

٦ — (ا) وعندما نقرأ سورة الإسراء، نراها فى مطلعها تحدثنا عن إسراء الله - تعالى - بنبيه - صلى الله عليه وسلم- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعن الكتاب الذى آتاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - ليكون هداية لقومه، وعن قضاء الله فى بنى إسرائيل ...

قال - تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام . إلى المسجد الأقصى، الذى باركنا حوله، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير. وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل، ألا تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ...»

(ب) ثم يبين - سبحانه - بعد ذلك أن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليهدى الناس إلى الطريق الأقوم، وليبشر المؤمنين بالأجر الكبير، وأن كل إنسان مسئول عن عمله، وسيحاسب عليه يوم القيامة، دون أن تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ...

قال - تعالى - : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أن لهم أجرا كبيرا ....

إلى أن يقول -سبحانه- : وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولاتزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».

(ج) ثم تسوق السورة الكريمة سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن عاقبة الترف والفسق ، الدمار والهلاك ، وأن من يريد العاجلة كانت نهايته إلى جهنم ، ومن يريد الآخرة ويقدم لها العمل الصالح كانت نهايته إلى الجنة.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ فيقول: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ».

(د) وبعد أن بين - سبحانه - أن سعادة الآخرة منوطة بإرادتها ، وبأن يسعى الإنسان لها وهو مؤمن ، عقب ذلك بذكر بضع وعشرين نوعا من أنواع التكاليف ، التى متى نفذها المسلم ظفر برضى الله - تعالى - ومثوبته ، ومن تلك التكاليف قوله - تعالى - : « لاتجعل مع الله إلها آخر ..

وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، ...

وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا ..

ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ...

ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .

ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ..

ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ..

وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ..

ولاتقف ماليس لك به علم ..

ولاتمش فى الأرض مرحا ....

(هـ) وبعد أن ساقت السورة الكريمة تلك التكاليف المحكمة التى لايتطرق

إليها النسخ أو النقض ، فى ثمانى عشرة آية ، أتبعت ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبتنزيه الله — تعالى — عن الشريك ، وببيان أن كل شيء يسبح بحمده — عز وجل — .

قال — تعالى — : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا » .

(و) ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال المشركين ، وترد عليها بما يدحضها ، وتأمر المؤمنين بأن يقولوا الكلمة التى هى أحسن ... فتقول :

وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا . وقل لعبادي يقولوا التى هى أحسن، إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » .

وبعد أن تقرر السورة الكريمة شمول علم الله — تعالى — لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، بعد أن تقرر ذلك، تحكى لنا جانبا من قصة آدم وإبليس فتقول :

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ..

(ح) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانا من نعم الله على عباده فى البر والبحر،

وألوانا من تكريمه لبنى آدم ، كما تصور أحوال الناس يوم القيامة ، وعدالة الله — تعالى — فى حكمه عليهم فتقول :

وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا ....

ثم يقول — سبحانه — : ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ....

(ط) ثم تحكى السورة جانبا من نعم الله — تعالى — على نبيه — صلى الله عليه وسلم — حيث ثبته — سبحانه — أمام مكر أعدائه ، وأمره بالمداومة على الصلاة وعلى قراءة القرآن ، لأن ذلك يزيده ثباتا على ثباته ، وتكريما على تكريمه — .

قال — تعالى — : وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ...

ثم يقول — سبحانه — : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ....

(ك) وبعد أن تقرر السورة الكريمة طبيعة الإنسان ، وتقرر أن الروح من أمر الله — تعالى — ، تتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان أنه المعجزة الخالدة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبإيراد المطالب المتعنتة التى طالب المشركون بها النبى - صلى الله عليه وسلم - ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر كل ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :
قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا .

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ..

(ل) ثم تسوق السورة الكريمة فى أواخرها الدلائل الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته، وتحكى جانبا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وتؤكد أن هذا القرآن أنزله الله ـ تعالى ـ بالحق ، وبالحق نزل ، وأنه نزله مفرقا ليقرأه الناس على تؤدة وتدبر ...

وكما افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله ـ تعالى ـ ، فقد اختتمت بحمد الله ـ تعالى ـ وتكبيره . قال ـ تعالى ـ :
وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا .

(م) وبعد فهذا عرض إجمالى لأهم الموضوعات والمقاصد التى اشتملت عليها سورة الإسراء . ومن هذا العرض يتبين لنا مايلى :
أن سورة الإسراء — كغيرها من السور المكية — قد اهتمت اهتماما بارزا بتنقية العقيدة من كل مايشوبها من شرك أو انحراف عن الطريق المستقيم ..
وقد ساقت السورة فى هذا المجال أنواعا متعددة من البراهين على وحدانية

الله ـ تعالى ـ وعلمه وقدرته ، ووجوب إخـــلاص العبادة له ، وعلى تنزيهه ـ سبحانه ـ عن الشريك ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ .

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما » .

ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهـــة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ...

٢ — كذلك على رأس الموضوعات التى فصلت السورة الحديث عنها ، شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد ابتدأت بإسراء الله ـ تعالى ـ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه ـ سبحانه ـ من آياته ما أراه ، ثم تحدثت عن طبيعة رسالته، وعن مزاياها ، وعن موقف المشركين منه ، وعن المطالب المتعنتة التى طلبوها منه ، وعن تثبيت الله — تعالى — له، وعن تبشيره بحسن العاقبة ...

قال — تعالى ـ : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

٣ — من الواضح — أيضا — أن سورة الإسراء ، اعتنت بالحديث عن القرآن الكريم ، من حيث هدايته ، وإعجازه ، ومنع الذين لا يؤمنون به عن فقهه ، واشتماله على مايشفى الصدور ،وتكراره للبينات والعبر بأساليب مختلفة، ونزوله مفرقا ليقرأه الناس على مكث ...

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله ـ تعالى ـ .

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ...

وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ...

ونفزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ...

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا ..

٤ — اهتمت السورة الكريمة اهتماما بينا، بالحديث عن التكاليف الشرعية، المتضمنة لقواعد السلوك الفردى والجماعى ...

وقد ذكرت السورة أكثر من عشرين تكليفا ، فى آيات متتالية . بدأت بقوله - تعالى - « لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا » الآية ٢٢ وانتهت بقوله - تعالى - « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » الآية ٣٨ وبجانب حديثها المستفيض عن التكاليف الشرعية ، تحدثت - أيضا - عن طبيعة الإنسان فى حالتى العسر واليسر ، وعن بخله الشديد بما يملكه ...

قال - تعالى - : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا » .

وقال - سبحانه - : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، إذاً لأمسكتم خشية الانفاق وكان الإنسان قتورا » .

٥ — ومن الجوانب التى حرصت السورة الكريمة على تجليتها والكشف عنها : بيان سنن الله التى لاتتخلف فى الهداية والإضلال ، وفى الثواب والعقاب ، وفى النصر والخذلان ، وفى الرحمة والإهلاك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .

وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .

يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون

كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هـــذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ...

هذه بعض المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها سورة الإسراء ، وهناك مقاصد أخرى يراها المتأمل فيها ، والمتدبر لآياتها ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

التفسير

قال الله تعالى : «سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ليلاً مِنَ المسجدِ الحرَامِ إِلَى المسجدِ الأَقْصَى الذى بارَكْنا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ من آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١) .

افتتحت سورة الإسراء بتنزيه الله ـ تعالى ـ عن كل مالا يليق بجلاله ، كما يدل على ذلك لفظ « سبحان » الذى من أحسن وجوه إعرابه ، أنه اسم مصدر منصوب ـ على أنه مفعول مطلق ـ بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله ـ تعالى ـ سبحانا أى تسبيحا ، بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء .

قال القرطبي : وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة ـ أى المبشرين بالجنة ـ أنه قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مامعنى سبحان الله ؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء[1] .

وقوله « أسرى » من الإسراء ، وهو السير بالليل خاصة .

قال الجمل : يقال أسرى وسرى ، بمعنى سار فى الليل ، وهما لازمان، لكن مصدر الأول الإسراء ومصدر الثانى السرى ـ بضم السين كالهدى ـ فالهمزة ليست للتعدية إلى المفعول،وإنما جاءت التعدية هنا من الباء . ومعنى أسرى به، صيره ساريا فى الليل »[2] .

والمراد « بعبده » خاتم أنبيائه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والإضافة للتشريف والتكريم . . .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٢) حاشية الجمل ج ٢ ص ٦٠٨ .

وأوثر التعبير بلفظ العبد ، للدلالة على أن مقام العبودية لله - تعالى - هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها ، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه فى هذا المقام لعبر به ، وللإشارة - أيضا - إلى تقرير هذه العبودية لله - تعالى - وتأكيدها ، حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية ، حيث ألهوا عيسى - عليه السلام - ، وألهوا أمه مريم ، مع أنهما بريئان من ذلك . . .

قال الشيخ القاسمى نقلا عن الإمام ابن القيم فى كتاب «طريق الهجرتين» أكمل الخلق أكملهم عبودية لله - تعالى - . . .

ولهذا كان النبى - صلى الله عليه وسلم - أقرب الخلق إلى الله - تعالى - وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لكماله فى مقام العبودية . وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول : أيها الناس ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنما أنا عبد . وكان يقول : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله .

وذكره - سبحانه - بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : فى مقام الإسراء حيث قال : سبحان الذى أسرى بعبده » . . .

وفى مقام الدعوة حيث قال : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » . . .

وفى مقام التحدى حيث قال: « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا»[1].

وقوله : « ليلا » ظرف زمان لأسرى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟

قلت : أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير ، تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه

(١) تفسير القاسمى ج ١٠ ص ٣٨٨٤ .

قد دل على معنى البعضية ... »(١) .

وقوله « من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » بيان لابتداء الإسراء وانتهائه .

أي : جل شأن الله ـ عز وجل ـ وتنزه عن كل نقص ، حيث أسرى بعبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جزء من الليل ، من المسجد الحرام الذي بمكة إلى المسجد الأقصى الذي بفلسطين . ووصف مسجد مكة بالحرام ، لأنه لا يحل انتهاك بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره .

ووصف مسجد فلسطين بالأقصى ، لبعده عن المسجد الحرام ، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الراكب للإبل في مدة شهر أو أكثر .

قال الآلوسي : ووصفه بالأقصى ـ أي الأبعد ـ بالنسبة إلى من بالحجاز . وقال غير واحد : إنه سمي به لأنه أبعد المساجد التي تزار من المسجد الحرام وبينهما زهاء أربعين ليلة . وقيل ـ وصف بذلك ـ : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد مواضعها ... »(٢)

وظاهر الآية يفيد أن الإسراء كان من المسجد الحرام ، فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : بينا انا في الحجر ـ وفي رواية ـ في الحطيم ، بين النائم واليقظان ، إذ أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه ، فاستخرج قلبي فغسله ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه ... »

وقيل : أسرى به من بيت أم هانىء بنت أبي طالب ، فيكون المراد بالمسجد

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٣٦ .
(٢) تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ٩

الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما الحرم كله مسجد .

ويمكن الجمع بين هذه الروايات ، بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقى فى بيت أم هانىء لفترة من الليل ، ثم ترك فراشه عندها وذهب إلى المسجد ، فلما كان فى الحجر أو فى الحطيم بين النائم واليقظان، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السموات العلا . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد ـ كما جاء فى بعض الروايات .

وبذلك يترجح لدينا أن وجود الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك الليلة فى بيت أم هانىء ، لا ينفى أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام ، كما تقرر الآية الكريمة .

وقوله « الذى باركنا حوله » صفة مدح للمسجد الأقصى

أى : جل شأن الله الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى أحطنا جوانبه بالبركات الدينية والدنيوية

أما البركات الدينية فمن مظاهرها : أن هذه الأرض التى حوله ، جعلها الله ـ تعالى ـ مقرا لكثير من الأنبياء ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وداود وسليمان ، وزكريا ويحيى وعيسى

قال ـ تعالى ـ : « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها . . . »(١)

وقال ـ سبحانه ـ فى شأن إبراهيم : « ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين »(٢)

والمقصود بهذه الأرض أرض الشام ، التى منها فلسطين

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١

(٢) « « « ٧١

« وأما البركات الدنيوية فمن مظاهرها : كثرة الأنهار والأشجار والثمار والزروع فى تلك الأماكن

قال بعض العلماء : وقد قيل فى خصائص المسجد الأقصى: أنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين، ومعراجه إلى السموات العلا . وأولى القبلتين وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجد إلا إليه ، (١)

وقوله - سبحانه - ولنريه من آياتنا، إشارة إلى الحكمة التى من أجلها أسرى الله - تعالى - بنبيه -صلى الله عليه وسلم- . فقوله « لنريه » متعلق بأسرى . و « من » للتبعيض لأن ما رآه النبى - صلى الله عليه وسلم - وإن كان عظيما إلا أنه مع عظمه بعض آيات الله بالنسبة لما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب

أى : أسرينا بعبدنا محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، ثم عرجنا به إلى السموات العلا، لنطلعه على آياتنا، وعلى عجائب قدرتنا ، والتى من بينها : مشاهدته لأنبيائها الكرام ، ورؤيته لما نريده أن يراه من عجائب وغرائب هذا الكون .

ولقد وردت أحاديث متعددة فى بيان ما أراه الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فى تلك الليلة المباركة، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ... ووجدت فى السماء الدنيا آدم فقال لى جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد على آدم السلام فقال : مرحبا وأهلا بابنى ،فنعم الابن أنت ...

وفى رواية للامام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم لما عرج بى ربى - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم .. » (٢)

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ص ٨ طبعة دار الشعب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على سعة علمه، ومزيد فضله فقال - تعالى - « إنه هو السميع البصير ».

أي : إنه - سبحانه - هو السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم. بصير بما يسرونه ويعلنونه. وسيجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب، بدون ظلم أو محاباة.

هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل منها :

١ - أن هذه الآية دلت على أن ثبوت الإسراء للنبي - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأما العروج به - صلى الله عليه وسلم - إلى السموات العلا فقد استدل عليه بعضهم بآيات سورة النجم، وهي قوله - تعالى - : والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى.

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة بأسانيدها ومتونها، وقال في أعقاب ذكر بعضها.

قال البيهقي : وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى بيت المقدس، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية[1]

وقال القرطبي : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروى عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا. »[2]

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ج ٧ طبعة دار الشعب.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٥

٢ — قال بعض العلماء ما ملخصه : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قال الزهرى وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووى ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان فى رجب سنة إثنتى عشرة من النبوة .

وإختار الحافظ المقدسى أنه كان فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب . .. [1] .

والذى تطمئن اليه النفس أن حادث الإسراء والمعراج ، كان بعد وفاة أبى طالب والسيدة خديجة - رضى الله عنها -

ووفاتهما كانت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث . وفى هذه الفترة التى أعقبت وفاتهما أشتد أذى المشركين بالنبى - صلى الله عليه وسلم - . فكان هذا الحادث لتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، ولتشريفه وتكريمه ...

٣ — من المسائل التى ثار الجدل حولها ، مسألة أكان الإسراء والمعراج فى اليقظة أم فى المنام ؟ وبالروح والجسد أم بالروح فقط ؟

وقد لخص بعض المفسرين أقوال العلماء فى هذه المسألة فقال : أعلم أن هذا الإسراء به - صلى الله عليه وسلم - المذكور فى هذه الآية الكريمة زعم بعض أهل العلم أنه بروحه دون جسده ، زاعما أنه فى المنام لا فى اليقظة ، لأن رؤيا الأنبياء وحى .

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد ، والمعراج بالروح دون الجسد .

ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده - صلى الله عليه وسلم - يقظة لا مناما ، لأنه قال : « بعبده » والعبد مجموع الروح والجسد .

ولأنه قال : « سبحان » والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام . فلو كان مناما لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٨

ولأنه لو كان رؤيا منام لمـــا كان فتنة ، ولا سببا لتكذيب قريش له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار ، إذ المنام قد يرى فيه مالا يصح :

ولأنه ـ سبحانه ـ قال « لنريه من آياتنا » والظاهـــر أن ما أراه الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كان رؤية عن طريق العين ويؤيده قوله ـ تعالى ـ : « ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ولأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد إستعمل في رحلاته البراق ، وإستعماله البراق يدل على أن هذا الحادث كان بالروح والجسد وفي اليقظة لا في المنام .

وما ثبت في الصحيحين من طريق شريك عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن الاسراء المذكور وقع مناما ، لاينافي ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة ، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أنه كان يقظة وبالروح والجسد ، لإمكان أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى الاسراء المذكور مناما ، ثم جاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح ، فأسرى به يقظة تصديقا لتلك الرؤيا المنامية . »(١)

هذا ، ومن العلماء الذين فصلوا القول في تلك المسألة تفصيلا محققا ، القاضي عياض في كتابه « الشفا » فقد قال ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق الآراء في ذلك :

« والحق في هـذا الصحيح ـ إن شاء الله ـ أنه إسراء بالروح والجسد في القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس في الاسراء بجسده وروحه حال يقظته إستحالة ... »(٢)

---

(١) تفسير أضواء البيان حـ٣ ص٤٨٠ لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

(٢) راجع الشفا للقاضي عياض حـ١ ص ٤٥ وما بعدها .

وما قاله القاضى عياض ـ رحمه الله فى هذه المسألة هو الذى نعتقده، ونلقى الله ـ تعالى ـ عليه

وبعد أن بين الله ـ سبحانه ـ جانباً من مظاهر تكريمه وتشريفه لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريق إسرائه به ، أتبع ذلك بالحديث عما أكرم به نبيه موسى ـ عليه السلام ـ فقال :

« وآتَيْنَـا مُوسَى الـكِتابَ وجَعَلناهُ هُـدًى لِبَنِى إسرائيلَ ، ألاَّ تتخِذُوا مِنْ دُونِى وكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنَا معَ نوحٍ ، إنَّهُ كانَ عبداً شكُوراً (٣) » .

والواو فى قوله ـ تعالى ـ : « وآتينا موسى الكتاب » إستئنافية ، أو عاطفة على قوله : ـ سبحان الذى أسرى .. »

والمراد بالكتاب : التوراة التى أنزلها الله تعالى ـ على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ والضمير المنصوب فى قوله : « وجعلناه » يعود إلى الكتاب .

وقوله « لبنى إسرائل » متعلق بهدى .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل »

و « أن » فى قوله أن لاتتخذوا من دونى وكيلا » يصح أن تكون زائدة وتكون الجملة مقولة لقول محذوف ، والمعنى :

وآتينا موسى الكتاب من أجل أن يكون هداية لبنى إسرائيل إلى الصراط المستقيم .

وقلنا لهم : لاتتخذوا غير الله ـ تعالى ـ وكيلا ، أى : معبودا ، تفوضون اليه أموركم ، وتكلون اليه شئونكم ، فهو ـ سبحانه ـ : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلا »

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قرأ أبو عمرو « ألا يتخذوا » بالياء خبرا عن بنى إسرائيل : وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ، أى : قلنا لهم لا تتخذوا. ويصح أن يكون « أن » ناصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى لئلا تتخذوا ... وأن تكون « أن » بمعنى أى التى للتفسير - أى هى مفسرة لما تضمنه الكتاب من النهى عن إتخاذ وكيل سوى الله - تعالى - [1]

وقوله : « ذرية من حملنا مع نوح ... » منصوب على الاختصاص ، أو على النداء والمقصود بهذه الجملة الكريمة إثارة عزائمهم نحو الايمان والعمل الصالح ، وتنبيههم إلى نعمه - سبحانه - عليهم ، حيث جعلهم من ذرية أولئك الصالحين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - وحضهم على السير على منهاجهم فى الايمان ولعمل الصالح ، فإن شأن الأبناء أن يقتدوا بالآباء فى التقوى والصلاح .

والمعنى : لا تتخذوا يا بنى إسرائيل معبودا غير الله - تعالى - ، فأنتم أبناء أولئك القوم الصالحين ، الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فأنجاهم الله - تعالى - مع نبيهم من الغرق .

قال الآلوسى : وفى التعبير بما ذكر إيماء إلى علة النهى من أوجه: أحدها تذكيرهم بالنعمة فى إنجاء آبائهم . والثانى : تذكيرهم بضعفهم وحالهم المحوج إلى الحمل والثالث : أنهم أضعف منهم - أى من آبائهم - لأنهم متولدون عنهم وفى إيثار لفظ الذرية الواقعة على الأطفال والنساء فى العرف الغالب مناسبة تامة لما ذكر »[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٥٣ طبعة دار الكتاب العالمية . طهران :

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ صـ ١٥

وقوله : « إنه كان عبدا شكورا » تذييل قصد به الثناء على نوح ـ عليه السلام ـ أى : إن نوحا ـ عليه السلام ـ كان من عبادنا الشاكرين لنعمنا ، المستعملين لها فيما خلقت له ، المتوجهين إلينا بالتضرع والدعاء فى السراء والضراء .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله : إنه كان عبدا شكورا ، ما وجه ملاءمته لما قبله ؟

قلت : كأنه قيل : لا تتخذوا من دونى وكيلا ، ولا تشركوا بى ، لأن نوحا كان عبدا شكورا ، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم ، والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح ـ عليه السلام ، فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص . . . »[1] .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ بأسلوب يرضى العقول السليمة ، والعواطف الشريفة .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك قضاءه العادل فى بنى إسرائيل وساق سنة من سننه التى لا تتخلف فى خلقه فقال ـ تعالى ـ :

« وقَضَيْنَا إلى بنِى إسرَائيلَ فى الكتابِ ، لَتفْسِدُنّ فى الأرضِ مرّتينِ ، ولتَعْلُنَّ علوًّا كبيراً (٤) فإذا جاء وعدُ أولاهُمَا بَعثْنَا عليكم عباداً لنا أُولِى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خلالَ الديارِ وكانَ وعداً مفعولاً (٥) ثم رددْنَا لكُمُ الكَرّةَ عليهم ، وأمْددْنَاكُمْ بأموالٍ وبنِينَ وجعلْناكم أكثرَ نفِيرًا (٦) إنْ أحسنْتُمْ أحسنْتُمْ لأنفسِكم ، وإنْ أسأتُم فلها ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٨

فإذَا جاءَ وَعْـدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وجوهَـكُم ، ولِيَدْخُلوا المسجدَ كما دخلُوه أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وليُتَبِّرُوا ماعلَوْا تَتْبِيرا (٧) عَسَى ربكُم أَنْ يَرْحَمَكُم وإِنْ عُدْتُم عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨) » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين .... » إخبار من الله ـ تعالى ـ لهم ، بما سيكون منهم ، حسب ما وقع فى علمه المحيط بكل شىء ، والذى ليس فيه إجبار أو قسر ، وإنما هو صفة إنكشافية ، تنبىء عن مآلهم وأحوالهم .

قال أبو حيان : والفعل « قضى » يتعدى بنفسه إلى مفعول ، كقوله ـ تعالى « فلما قضى موسى الأجل ... » ولما ضمن هنا معنى الإيحاء أو الانفاذ تعدى بإلى أى : وأوحينا أو أنفذنا إلى بنى إسرائيل فى القضاء المحتوم المبتوت وعن ابن عباس : وأعلمناهم ... [1] .

والمراد بالكتاب : التوراة ، وقيل : اللوح المحفوظ .

واللام فى قوله « لتفسدن ... » جواب قسم محذوف تقديره : والله لتفسدن .

ويجوز أن تكون جوابا لقوله ـ تعالى ـ « وقضينا ... » لأنه مضمن معنى القسم ، كما يقول القائل : قضى الله لأفعلن كذا ، فيجرى القضاء والقدر مجرى القسم ...

والمقصود بالأرض : عمومها ، أو أرض الشام

و « مرتين » منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : « لتفسدن » من غير

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ٨ طبعة دار الفكر ـ بيروت.

لفظه والمراد : إفسادتين وقوله - عز وجل - « ولتعلن ... » من العلو وهو ضد السفل ، والمراد به هنا : التكبر والتجبر والبغى والعدوان .

والمعنى : «وأخبرنا بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة خبرا مؤكدا » وأوحينا إليهم بواسطة رسلنا ، بأن قلنا لهم :لتفسدن فى الأرض مرتين، ولتستكبرن على الناس بغير حق ، إستكبارا كبيرا ، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار .

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه فى الكتاب ، يدل على ثبوته ، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبى - الإحكام للشىء والفراغ منه .

وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم ، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان .

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض : تحريفهم للتوراة،وتركهم العمل بما فيها من أحكام ، وقتلهم الأنبياء والمصلحين ..

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ، ويدمرهم تدميرا ، فقال - تعالى - : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » .

والمراد بالوعد : الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم فى الأرض ، فالكلام على حذف مضاف ، والضمير فى « أولاهما » يعود على المرتين المعبر عنهما بقوله : « لتفسدن فى الأرض مرتين » .

وقوله « فجاسوا » معطوف على « بعثنا » وأصل الجوس : طلب الشىء باستقصاء واهتمام ، لتنفيذ ما من أجله كان الطلب .

والمعنى : فإذا حان وقت عقابكم - يا بنى إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم « عبادا لنا أولى بأس شديد » أى أصحاب بطش شديد فى الحروب والقتال ، فاذلوكم وقهروكم ، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار ،

لقتل من بقى منكم على قيد الحياة . وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم أو سلب أموالكم ، وهتك أعراضكم ، وتخريب دياركم ... وعدا نافذا لا مرد له ، ولا مفر لكم منه .

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين هؤلاء العباد ـ الذين بعثهم الله لمعاقبة بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول ـ فعن ابن عباس وقتادة : هم جالوت وجنوده وقال ابن جبير وابن إسحاق : هم سنحاريب ملك بابل وجنوده . وقيل : هم العمالقة . وقيل بختنصر ..»(1)

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله ـ تعالى ـ عليهم فى المرتين ، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة .

فإن قال قائل : ومافائدة أن يخبر الله ـ تعالى ـ بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين . وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان ، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم ؟

فالجواب : أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله ـ عز وجل ـ لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير ، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم .

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى إلى الهلاك ، وأن يحذروا أممهم من ذلك ويبصروهم بسوء عاقبة السير فى طريق الغى، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله ـ عز وجل ـ .

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم ، تنبيه اليهود المعاصرين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن على شاكلتهم فى الفسوق والعصيان من المشركين، إلى سنة من سنن الله فى خلقه . وهى أن الإفساد عاقبته الخسران .

---

(1) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧ .

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى ثبتت نبوته ثبوتا لاشك فيه ، لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

ثم أشار ـ سبحانه ـ إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار ، وهى أن الأمم المغلوبة على أمرها ، تستطيع أن تسترد مجدها ، متى أصلحت من شأن أنفسها ، ومتى استقامت على أمر الله ـ تعالى ـ فقال ـ سبحانه ـ : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا » .

فى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم ، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم .

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها ـ سبحانه ـ بقوله : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » .

والكرة : المرة من الشىء ؛ وأصلها من الكر وهو الرجوع ، مصدر كر يكر ـ من باب قتل ـ ، يقال : كر الفارس كرا ، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال .

والمراد بالكرة هنا : الدولة والغلبة على سبيل المجاز .

أى : ثم أعدنا لكم ـ يابنى إسرائيل ـ الدولة والغلبة على أعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم ، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله ـ تعالى ـ ، واتبعتم ماجاءكم به رسلكم .

والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان ، وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر .

قال أبو حيان : وجعل ـ سبحانه ـ « رددنا » موضع نرد ـ إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد ـ لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع ، عبر عن المستقبل بالماضى[1] .

---

(١) تفسير أبى حيان جـ ٦ ص ١٠ .

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : « وأمددناكم بأموال وبنين » .

أى : لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم ، بل فضلا عن ذلك، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد ، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم ، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم .

وأما النعمة الثالثة فتتجلى فى قوله - تعالى - : « وجعلناكم أكثر نفيرا » .

والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته ، وهو منصوب على التمييز . والمفضل عليه محذوف . والتقدير : وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم ...

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم ، وأن تحسنوا الاستفادة منها ، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة ، فقد نصركم بعد هزيمتكم ، وأغناكم بعد فقركم ، وكثركم بعد قلتكم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح ، والعصيان عاقبته الخسران، وأن كل إنسان مسئول عن عمله، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه، فقال - تعالى - : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » .

أى : إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم ، بأن أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - ، أفلحتم وسعدتم ، وجنيتم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل ، وإن أسأتم أعمالكم ، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة ، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى - .

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن « بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار » .

وكيف أن الإحسان كانت عاقبته أن « رددنا لكم الكرة » على أعدائكم « وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » .

قال صاحب البحر ما ملخصه : وجواب وإن أسأتم قوله « فلها » وهو خبر لمبتدأ محذوف أي : فالإساءة لها . قال الكرماني : قال - سبحانه - « فلها » باللام ازدواجا . أي : أنه قابل « لأنفسكم » بقوله « فلها » . وقال الطبري اللام بمعنى إلى أي : فإليها ترجع الإساءة .

وقيل : اللام بمعنى على . أي : فعليها ، كما فى قول الشاعر : فخــر صريعا لليدين وللفم . »[1]

ثم بين - سبحانه - ما يحل بهم من دمار ، بعد إفسادهم للمرة الثانية ، فقال - تعالى - « فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا » .

والكلام أيضا هنا على حذف مضاف ، وجواب إذا محذوف دل عليه ما تقدم وهو قوله « بعثنا عليكم عبادا لنا . » فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض ، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أي : ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم ، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله « ليسوءوا : الواو للعباد أولى البأس الشديد . وفى عود الواو على العباد نوع استخدام ، إذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده ، والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده .

وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعــل « ليسوء » والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد ، وإما البعث .

---

(١) تفسير البحر المحيط حـ ٦ ص ١١

وقرأ الكسائى لنسوء ـ بنون العظمة ـ أى : لنسوء نحن ، وهو موافق لما قبله ، من قوله : بعثنا ، ورددنا ، وأمددنا ، ولما بعده من قوله : عدنا ، وجعلنا . وقرأ الباقون « ليسوءوا » مسندا إلى ضمير الجمع العائد على العباد ، وهو موافق لما بعده من قوله : « وليدخلوا المسجد . وليتبروا »[1]

وقال الإمام الرازى : « يقال ساءه يسوءه إذا أحزنه ، وإنما عزا ـ سبحانه ـ الإساءة إلى الوجوه ، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح فى القلب ظهر الإشراق فى الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب ، ظهر الكلوح فى الوجه . »[2]

وقوله ـ سبحانه ـ : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » معطوف على ما قبله وهو قوله ـ سبحانه ـ « ليسوءوا وجوهكم »

والمراد بالمسجد : المسجد الأقصى الذى ببيت المقدس، وقوله « كما دخلوه» صفة لمصدر محذوف

والمعنى : وليدخلوا المسجد دخولا كائنا كدخولهم إياه أول مرة

قال أبو حيان : ومعنى « كما دخلوه أول مرة » أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال »[3]

أى أن المراد من التشبيه ، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم

وقوله ـ تعالى ـ « وليتبروا ما علوا تتبيرا » يشعر بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد ببنى إسرائيل ، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه . ومنه قول الشاعر :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦١٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٥٩ .

(٣) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١١ .

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبنى وآخر رافع

أى : يخرب ويهدم ما يبنى .

و «ما» فى قوله «ماعلوا» اسم موصول مفعول يتبروا ، وهو عبارة عن البلاد والأماكن التى هدموها ، والعائد محذوف ، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله .

أى : وليهدموا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها ، وصارت فى حوزتهم ، تدميرا تاما لا مزيد عليه .

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل ، عقب إفسادهم الثانى فى الأرض ، لم يكتفوا بجوس الديار ، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم ، ودخول المسجد الأقصى فاتحين ومخربين ، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا يوصف .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين ، قد يكون طريقا لرحمتهم ، وسببا فى توبتهم وإنابتهم ، إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالأحداث الماضية ، وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر ، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى أبلغ تعبير وأحكمه ، فقال - تعالى - : «عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا» .

أى : عسى ربكم أن يرحمكم ، ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة ، وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم ، فقد علمتم أنه - سبحانه - لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفعه إلا بتوبة .

قال : أبو حيان : وهذه الترجية ليست لرجوع دولة ، وإنما هى من باب

ترحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا ـ عليهما السلام ـ ولكنهم لم يفعلوا »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : «وإن عدتم عدنا» إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم ، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم .

أى : وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة امرى ، وانتهاك حرماتى ، بعد أن تداركتكم رحمتى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار . .

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التى جاءهم بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله ـ صلى الله عليه وسلم وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين ، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل ...

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ « عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين »

ثم بين ـ سبحانه ـ عقوبتهم فى الآخرة فقال : « وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » أى : إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة ، أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم « حصيرا » أى : سجنا حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه ، أو الفكاك عنه ، أو فراشا تفترشونه ، كما قال ـ تعالى ـ « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين » .

قال بعض العلماء : قوله « حصيرا » فيه وجهان : الأول : أن الحصير المحبس والسجن . من الحصر وهو الحبس ، يقال حصره يحصره حصرا ، إذا ضيق عليه وأحاط به . .

والثانى . أن الحصير : البساط والفراش ، من الحصير الذى يفرش ، لأن

---

(١) تفسير البحر المحيط ج ٦ ص ١١

العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ... »[1]

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت لنا قضاء الله ـ تعالى ـ فى بنى إسرائيل ، وساقت لنا لكى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله ـ تعالى ـ التى لا تتخلف ، والتى من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما الفلاح ، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

هذا ، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله ـ تعالى ـ على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض ، يرى أقوالا متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف[2] ...

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ أن الله ـ تعالى ـ عهـد إلى بنى إسرائيل فى التوراة « لتفسدن فى الأرض مرتين » فكان أول الفسادين قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، وكان يدعى « صحابين » فبعث الجنود ، وكانوا من أهل فارس ... فتحصنت بنو إسرائيل ... ودخل فيهم « بختنصر » ـ أحد جنود صحابين ـ وسمع أقوالهم .. الخ »[3]

وهذا الأثر من وجوه ضعفة ، أن غزو النبط ومعهم بختنصر لبنى إسرائيل سابق على زمان زكريا ـ عليه السلام ـ بحوالى ستة قرون .

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات : الأولى فى سنة ٦٠٦ ق م والثانية فى سنة ٥٩٩ ق م ، والثالثة فى سنة ٥٧٨ ق م .

---

(١) تفسير أضواء البيان حـ٣ صـ٣٧٢ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

(٢) ذكرنا معظم هذه الأقوال فى كتابنا « بنو إسرائيل فى القرآن والسنة » حـ ٢ ص ٣٥٩ وناقشناها ، وضعفنا ما يستحق التضعيف منها ، ورجحنا ما يستحق الترجيح ...

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٦ صـ ١٧ ـ بتصرف وتلخيص ـ .

وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم ، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل .

أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره : فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى .

وإذا فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومعه « بختنصر » يتنافى مع الحقائق التاريخية .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الأثر إضطرابه ظاهر ، لأن «صحابين» ملك النبط ، هو الذى يسميه المؤرخون « سحاريب » وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق م . أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة ، أى : أن بختنصر لم يكن معاصرا له .

والرأى الذى نختاره : هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول ، هم جالوت وجنوده . ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلى :

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة ، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل ، وبين «جالوت» قائد أعدائهم ، ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم .

ويتجلى هذا المعنى فى قوله - تعالى - : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم . إبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا . قالوا وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .... »

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . . . » يدل دلالة قويه . على أنهم كانوا قبل

قتالهم لجالوت مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم ، وإلى مفارقة أبنائهم .

٢ – قوله – تعالى – : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » صريح فى أن الله – تعالى – نصر بنى إسرائيل بعد أن تابوا وأنابوا على أعدائهم .

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن علينا ، من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده . . .

قال – تعالى – : ولما برزوا – أى بنو إسرائيل – لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء . . . »

ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل ، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم ، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم .

٣ – قوله – تعالى – : « وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم طالوت ، وداود ، وسليمان لهم .

ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة ، ازدهرت مملكتهم ، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة . وبالبنين الكثيرة ، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة .

أما بعد هذا العهد ، بل وقبل هذا العهد ، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات . . .

فبعد موت سليمان – عليه السلام – سنة ٩٧٥ ق م تقريبا ، انقسمت مملكتهم إلى قسمين : مملكة يهوذا فى الجنوب ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، واستمرتا فى صراع ونزاع حتى قضى الآشوريون سنه ٧٢١ ق م على مملكة إسرائيل ، وقضى « بختنصر » على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م .

٤ — ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله ـ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد . . . . ، قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت . فجاس خلال ديارهم ، فسألوا الله ـ تعالى ـ أن يبعث لهم ملكا ، فبعث لهم طالوت ، فقاتلوا جالوت ، وانتصروا عليه ، وقتل داود جالوت ، ورجع إلى بنى إسرائيل ملكهم . فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة « بختنصر » فخرب المساجد ، وتبر ما علوا تتبيرا ... »(1)

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله ـ تعالى ـ على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، هم جالوت وجنوده .

أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى ، فيرى كثير من المفسرين أنهم « بختنصر » وجنوده .

وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب ، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم ، وسوقهم أسارى إلى بابل سنه ٥٨٨ ق‌م .

إلا أننا نؤثر على هذا الرأى ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى ، هم الرومان بقيادة زعيمهم « تيطس » سنة ٧٠ م . لأمور من أهمها :

١ — أن الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل « تيطس » بهم ، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال « بختنصر » لهم . فهم على سبيل المثال ـ قبيل بطش الرومان بهم ، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ ، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى ـ عليه السلام ـ ولكن الله ـ تعالى ـ نجاه من شرورهم .

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطى ج ٤ ص ١٦٣

٢ — ضربات الرومان ـ فى ذاتها ـ كانت أشد وأقسى على بنى إسرائيل ، من ضربات « بختنصر » لهم .

فمثـلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة « تيطس » بلغ مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير(١) .

بينما كان عدد القتلى والأسرى منهم على يد « بختنصر » أقل من هذا العدد بكثير .

ولقد وصف المؤرخون النـكبة التى أوقعها الرومان بهم ، بأوصاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم .

يقول أحد الـكتاب واصفا ما حل باليهود على يد « تيطس » الرومانى : كان « تيطس » فى الثلاثين من عمره ، حين وقف سنة [٧٠ م] أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه ، بعـــد أن بدأت المدينة تعانى مـن أهوال الحصار . . .

وبعد أن اقتحم « تيطس » وجنوده المدينة ، أصدر أمره إليهم : أن احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لـكم ، وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح ـ عليه السلام ـ حين قال : ستاقى هذه الأرض بؤسا وعنتا ، وسيحل الغضب على أهلها ، وسيسقطون صرعى على حد السيف ، ويرسلون عبيدا فى كل مصر . وستطأ أورشليم الأقدام .

٣ — النـكبة التى أنزلها الرومان بهم — من حيث آثارها — أشنع بكثير من النـكبة التى أنزلها بختنصر بهم . لأنهم بعد تنـكيل بختنصر بهم وأخـــذهم

---

(١) من كتاب « تاريخ الإسرائيليين » ص ٧٦ لشاهين مكاريوس .

(٢) من مقال للاستاذ عمر طلعت زهران عنوانه « تدمير أورشليم » نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢١ ص ٤٧ .

أسرى إلى بلاده، وبقائهم فى الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى ، بمساعدة « قورش » ملك الفرس ، الذى انتصر على « بختنصر » سنة ٥٣٨ ق م تقريبا ، وبدأوا يتكاثرون من جديد .

أما بعد تنكيل « تيطس » بهم فلم تقم لهم قائمة ، ومزقوا فى الأرض شر ممزق ، وانقطع دابرهم كاملة » .

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه « تيطس » بهم من ضربات : «إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كامة، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد « تيطس » تفرقوا فى جميع بلاد الله ، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوا ؛ أو نزلوا فيها ...»[1] .

ولهذه الأسباب نرجح أن يكون العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض ، هم الرومان بقيادة « تيطس » .

أقول ومع ترجيحنا لذلك، إلا أننا نحب فى نهاية حديثنا عن هذه الآيات الكريمة ، أن نقرر ما يأتى :

١ — أنه لم يصح عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل عقب مرتى إفسادهم ، وإلا لذكره المفسرون .

٢ — أن الإفساد فى الأرض قد حدث كثيرا من بنى إسرائيل ، وأن المقصود من قوله — تعالى — « لتفسدن فى الأرض مرتين » إنما هو أظهر وأبرز مرتين حدث فيهما الإفساد منهم .

ومما يدل على أن هذا الإفساد قد تكرر منهم قوله — تعالى — : « وإن عدتم عدنا » ، وقوله — تعالى — : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »[2] .

---

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٧ لشاهين مكاريوس .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

٣ — أن المقصود من سياق الآيات ، إنما هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم حال صلاحها وفسادها .

وقد ساق القرآن الكريم هذا المعنى بأحكم عبارة ، وذلك فى قوله ـ تعالى ـ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .
ولا شك أن هذه السنة ماضية فى الأمم دون تبديل أو تحويل فى كل زمان ومكان .

وما دام هذا هو المقصود ، ففهمه لا يتوقف على تحديد مرتى إفسادهم ، وتحديد المسلط عليهم عقب كل مرة .

ويعجبنى فى هذا المقام ، قول الإمام ابن كثير : « وقد وردت فى هذا ـ أى فى المسلط عليهم فى المرتين ـ آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن فى غنية عنها ، ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله ـ تعالى ـ أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم « جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد » فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء »[1] .

وقول الإمام الرازى : « واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى ، سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم »[2] .

وقد بسطنا القول فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، بصورة أكثر تفصيلا

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٥ ص ٤٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٥٦ .

فى غير هذا المكان ، فليرجع إليه من شاء الاستزادة(١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه قد آتى موسى - عليه السلام - التوراة لتكون هداية لبنى إسرائيل ، وأنه - عز وجل - قد قضى فيهم بقضائه العادل . . أتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

« إنَّ هذَا القرآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أقومُ ، ويبشرُ المؤمنينَ الذينَ يعملُونَ الصَّالحاتِ أنَّ لَهُم أجراً كبيراً (٩) وأنَّ الذينَ لا يُؤمِنُون بالآخرةِ أعتدْنَا لَهُم عذاباً أليما (١٠) » .

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح ما فعله فى حق عباده المخلصين ، وهو الإسراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإيتاء الكتاب لموسى - عليه السلام - ، ومافعله فى حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة ، لا جرم أثنى - سبحانه - على القرآن فقال : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »(٢) .

والفعل « يهدى » مأخوذ من الهداية ، ومعناها : الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى البغية . والمفعول محذوف . أى : يهدى الناس .

وقوله - سبحانه - « للتى هى أقوم » صفة لموصوف محذوف ، أى يهدى الناس إلى الطريقة أو الملة التى هى أقوم » .

قال صاحب الكشاف : « للتى هى أقوم » أى : للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها ، أو للملة أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة

---

(١) راجع كتابنا « بنو إسرائيل فى القرآن والسنة » ج ٢ من ص ٣٤٧ إلى ص ٣٩٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى .

الذى تجده مع الحذف ، لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه »[١] .

والمعنى : إن هذا القرآن الكريم ، الذى أنزله الله ـ تعالى ـ عليك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم فى جميع شئونهم الدينية والدنيوية ـ إلى الملة التى هى أقوم الملل وأعدلها ، وهى ملة الإسلام ، فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة ، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ، ونواميس الفطرة البشرية فى تناسق واتساق .

ويهدى للتى هى أقوم ، فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله .

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة ، بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل ، ولا تسهل حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار ، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال ،

ويهدى للتى هى أقوم ، فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا .

ويهدى للتى هى أقوم فى نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل ... »[٢] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٣٩ ،

(٢) فى ظلال القرآن ج ١٥ ص ٢٢١٥ .

وقوله - سبحانه - «ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا» صفة ثانية من صفات القرآن الكريم.

أى ، أن هذا القرآن بجانب هدايته للتى هى أقوم ، فهو - أيضا - يبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا كبيرا من خالقهم - عز وجل - : أجرا كبيرا لا يعلم مقداره إلا مسديه ومانحه ، وهو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - : «وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما» بيان لسوء عاقبة الذين لا يستجيبون لهداية القرآن الكريم ، وهو معطوف على قوله - تعالى - «أن لهم أجرا كبيرا» .

أى : أن هذا القرآن يبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، ويبشر - على سبيل التهكم - الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب بالعذاب الأليم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر مالم يؤمن به الكفرة ، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به ، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وبين جزائها ، الذى أنبأ عنه قوله - تعالى - «أعتدنا لهم عذابا أليما» وهو عذاب جهنم . أى : أعددنا وهيأنا لهم ، فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما ...

والآية معطوفة على قوله «أن لهم أجرا كبيرا» فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به كثبوت الأجر الكبير للمؤمنين ، ومصيبة العدو سرور يبشر به ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين بثوابهم وعقاب أعدائهم ...»[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٢ .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحوال التى قد يقدم الإنسان فيها على طلب ما يضره بسبب عجلته واندفاعه فقال - تعالى - :

« ويدْعُ الإنسانُ بالشرِّ دُعاءهُ بالْخيرِ، وكانَ الإنسانُ عَجُولاً(٨)».

والمراد بالإنسان هنا : الجنس وليس واحدا معينا .

قال الآلوسى : وقوله : « دعاءه بالخير » أى : دعاء كدعائه بالخير ، فحذف الموصوف وحرف التشبيه ، وانتصب المجرور على المصدرية »(١) .

والمعنى : ويدعو الإنسان حال غضبه وضجره ، على نفسه ، أو على غيره ، « بالشر » كأن يقول : « اللهم أهلكنى ، أو أهلك فلانا ...

« دعاءه بالخير » أى : يدعو بالشر على نفسه أو على غيره ، كدعائه بالخير ، كأن يقول : اللهم اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين .

قال ابن كثير : : يخبر - تعالى - عن عجلة الإنسان ، ودعائه فى بعض الأحيان نفسه أو ولده ، أو ماله ، « بالشر » أى : بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، كما قال - تعالى - : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ، لقضى إليهم أجلهم ... » .

وفى الحديث : « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها »(٢) .

وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو الفاسق الذى يدعو الله - تعالى - بالشر ، كأن يسأله بأن ييسر له أمرا محرما كالقتل والسرقة والزنا وما يشبه ذلك .

وقد أشار القرطبى إلى هذا الوجه بقوله : « وقيل نزلت فى النضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول - كما حكى القرآن عنه - : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . أو ائتنا بعذاب أليم » .

---

(١) الآلوسى ج ١٥ ص ٢٣

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٥ ص ٤٦

وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور ، كما يدعو فى طلب المباح . كما فى قول الشاعر :

أطوف بالبيت فيمن يطوف وأرفع من مئزرى المسبل
وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارج الهم عن يوسف يسخر لى ربة المحمل[1]

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهم أدرى بتفسير كتاب الله من غيرهم .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : عن ابن عباس قال فى قوله - تعالى - : ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير .. » يعنى قول الإنسان اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يعجل له الله ذلك كما يعجل له الخير لهلك . . »

وقال قتاده : يدعو على ماله فيلعن ماله ، ويدعو على ولده ، ولو استجاب الله له لأهلكه » .

وقال مجاهد : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده ، ولا يحب أن يجاب »[2] .

وقوله - تعالى - : « وكان الإنسان عجولا » بيان للسبب الذى حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدعو بالخير .

والعجول من العجل - بفتح العين والجيم - وهو الإسراع فى طلب الشىء قبل وقته .

يقال : عجل - بزنة تعب - يعجل فهو عجلان ، إذا أسرع .

أى : وكان الإنسان متسرعا فى طلب كل ما يقع فى قلبه ، ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر ، ولا يتأمل تأمل المتدبر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ صـ ٢٢٥

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ صـ ٢٧

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتي فلا تستعجلون »(١) .

ثم ساق — سبحانه — ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته بعباده ، ومجازاتهم على أعمالهم يوم القيامة ، فقال — تعالى — :

« وجَعلْنَا الليلَ والنهارَ آيتينِ ، فمَحَوْنَا آيةَ الليلِ ، وجَعَلْنَا آيةَ النهارِ مبصِرةً ، لتبتَغُوا فضلاً مِنَ ربكُم ، ولِتعلَمُوا عَددَ السنينَ والحساب، وكلَّ شيءٍ فصَّلنَاهُ تفصيلاً (٩) وكلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائرهُ في عُنُقِه ، ونخرِجُ لهُ يومَ القيامةِ كتاباً يلْقَاهُ منشُوراً (١٠) اقرَأْ كتابَكَ كفَى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حَسِيباً (١١) مَنِ اهْتَدَى فإنَّما يَهْتَدِي لنفسِهِ ، ومَنْ ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْرَى ، وما كنَّا مُعذِّبِينَ حتى نبعثَ رسولاً (١٢) » .

قال أبو حيان : قوله - تعالى - « وجعلنا الليل والنهار آيتين .. » لما ذكر - سبحانه - القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة ، ذكر ما أنعم به مما لم يمكن الانتفاع إلا به ، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوى . وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان ، وانتقاله من حال إلى حال ، ذكر أن كل هذا العالم كذلك في الانتقال ، لا يثبت على حال ، فنور عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتقاص آخر »(٢) .

والمراد بالآيتين هنا : العلامتان الواضحتان ، الدالتان على قدرة الله — تعالى — ووحدانيته .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٧

(٢) تفسير البحر المحيط جـ ٦ صـ ١٤

وقوله : « فمحونا » من المحو بمعنى إزالة الشيء ، يقال : محى فلان الشيء محوا - من باب قتل - إذا أزال أثره .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية إتجاهان : أما الإتجاه الأول فيرى أصحابه ، أن المراد بالآيتين : نفس الليل والنهار ، وأن الكلام ليس فيه حذف .

فيكون المعنى : وجعلنا الليل والنهار - بهيئاتهما الثابتة ، وتعاقبهما الدائم، واختلافهما طولا وقصرا - آيتين كونيتين كبيرتين ، دالتين على أن لهما صانعا قادرا ، حكيما ، هو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - « فمحونا آية الليل » أى : فجعلنا الآية التى هى الليل . محوة الضوء ، مظلمة الهيئة ، مختفية فيها الأشياء ، ساكنة فيها الحركات .

وقوله - تعالى - « وجعلنا آية النهار مبصرة » أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء .

وعلى هذا الإتجاه ، تكون إضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشيء إلى نفسه ، مع اختلاف اللفظ ، تنزيلا لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف فى المعنى ، كما فى قوله - تعالى - « شهر رمضان » فرمضان هو نفس الشهر

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف ، وأن المراد بالآيتين : الشمس والقمر ، فيكون المعنى : وجعلنا نيرى الليل والنهار - وهما الشمس والقمر - آيتين دالتين على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، فمحونا آية الليل - وهى القمر - ، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه ، ولم نجعله كالشمس فى ذلك ، وجعلنا آية النهار - وهى الشمس - مبصرة ، أى : ذات شعاع وضياء يبصر فى ضوئها الشيء على حقيقته .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين ، دون أن يرجح بينهما فقال : قوله - تعالى - : « وجعلنا الليل والنهار آيتين .. » فيه وجهان : أحدهما أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتكون الإضافة فى آية الليل

وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل ، وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة .

والثانى : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر . . . . .

أى : فمحونا آية الليل التى هى القمر ، حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس تبصر به الأشياء ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شىء »[1] .

والذى نراه . أن الإتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه لا يحتاج إلى تقدير ، وما كان كذلك أولى مما يحتاج إلى تقدير ، ولأن الليل والنهار هما بذاتهما ، من أظهر العلامات والأدلة على قدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيته ، وهناك عشرات الآيات القرآنية فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله — تعالى — « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون »[2]

وقوله — تعالى — : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ... »[3]

وقال — تعالى — : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب »[4] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أوردها الله ـ تعالى ـ فى هذا المعنى .

وقوله ـ سبحانه ـ : « لتبتغوا فضـلا من ربكم » بيان لمظهر من مظاهر حكمته ـ تعالى ـ ورحمته بعباده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٠

(٢) سورة يس الآية ٣٧

(٣) سورة فصلت الآية ٣٧

(٤) سورة آل عمران . الآية ١٩٠

والجملة الكريمة متعلقة بما قبلها ، وهو قوله - سبحانه - « وجعلنا آية النهار مبصرة ، أي : جعلنا النهار مضيئا ، لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور معاشكم ، ومن الأرزاق التي قسمها الله بينكم .

قال الآلوسي ما ملخصه : وفي التعبير عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب بالابتغاء . : دلالة على أنه ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب ، وإنما الإعطاء من الله - تعالى - بطريق التفضل ... »[1]

وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » .

فقوله - تعالى - « لتسكنوا فيه » يعود إلى الليل . وقوله - تعالى - « ولتبتغوا من فضله » يعود على النهار .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه الهيئة فقال : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » .

أي : وجعلنا الليل والنهار على هذه الصفة من التعاقب والاختلاف في الطول والقصر لتعرفوا عن طريق ذلك عدد الأيام والشهور والأعوام ، التي لا تستغنون عن معرفتها في شئون حياتكم , ولتعرفوا - أيضا - الحساب المتعلق بما في معاملاتكم : وبيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم وصلاتكم ، وصيامكم ، وزكاتكم ، وحجكم ، وأعيادكم ... وغير ذلك مما تتوقف معرفته على تقلب الليل والنهار . وولوج أحدهما في الآخر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وكل شيء فصلناه تفصيلا » .

والتفصيل : من الفصل بمعنى القطع . والمراد به هنا : الإبانة التامة للشيء بحيث يظهر ظهورا لا خفاء معه ولا التباس .

ولفظ « كل » منصوب على الاشتغال بفعل يفسره ما بعده .

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٥ ص ٣٠

أي . وفصلنا كل شيء تحتاجون إليه في أمور دينكم ودنياكم ، تفصيلا واضحا جليا ، لا خفاء معه ولا التباس ، فقد أقمنا هذا الكون على التدبير المحكم ، وعلى الصنع المتقن ، وليس على المصادفات التي لا تخضع لنظام أو ترتيب .

ثم ساق — سبحانه — صورة من صور هذا التفصيل المحكم في كل شيء فقال — تعالى — : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه . . »

والمراد بطائره : عمله الصادر عنه باختياره وكسبه ، حسبما قدره الله — تعالى — عليه من خير وشر .

أي : وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج عنه ، إلزاما لا فكاك له منه ، ولا قدرة له على مفارقته .

وعبر — سبحانه — عن عمل الانسان بطائره ، لأن العرب كانوا — كما يقول الآلوسي — يتفاءلون بالطير ، فإذا سافروا ومر بهم الطير زجروه ، فإن مر بهم سانحا — أي من جهة الشمال إلى اليمين — تيمنوا وتفاءلوا ، وإن مر بارحا ، أي : من جهة اليمين إلى الشمال تشاءموا ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير إستعارة تصريحية ، لما يشبههما من قدر الله — تعالى — وعمل العبد ، لأنه سبب للخير والشر »[1] .

وقوله — سبحانه — « في عنقه » تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط بين الانسان وعمله .

وخص — سبحانه — العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء ، لأن اللزوم فيه أشد ، ولأنه العضو الذي تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها ، وتارة يكون فيه ما يشينه الغل والقيد أو ما يشبههما .

قال الامام ابن كثير : وطائره : هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٥ ص ٣١

ومجاهد ، وغير واحد - من خير أو شر ، يلزم به ويجازى عليه ؛ كما قال - تعالى - « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ». وكما قال - تعالى - « إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، قليله وكثيره ؛ ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء »[1] .

وقوله - سبحانه - « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » بيان لحاله فى الآخرة بعد بيان حاله فى الدنيا .

والمراد بالكتاب هنا صحائف أعماله التى سجلت عليه فى الدنيا .

أى : ألزمنا كل إنسان مكلف عمله الصادر عنه فى الدنيا ، وجعلناه مسئولا عنه دون غيره . أما فى الآخرة فسنخرج له ما عمله من خير أو شر فى كتاب يلقاه منشورا ، أى ، مفتوحا بحيث يستطيع قراءته ، ومكشوفا بحيث لا يملك له خفاء شىء منه ، أو تجاهله ، أو المغالطة فيه .

كتابا ظهرت فيه الخبايا والأسرار ظهورا يغنى عن الشهود والجدال .

كتابا مشتملا على كل صغيرة وكبيرة من الإنسان ، كما قال - تعالى - « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين »[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يخاطب به الانسان بعد أن فتح كتابه أمامه ، فقال - تعالى - « اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

أى : ويقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه ، اقرأ كتابك هذا ، وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك فى الدنيا ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٥ صـ ٤٧

(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٧

أي . محاسبا ، كجليس بمعنى مجالس ، أو حاسبا وعادا كصريم بمعنى صارم يقال حسب فلان على فلان قوله ، إذا عده عليه .

ولفظ « كفى » هنا لازم ، ويطرد فى هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية و « حسيبا » تمييز ، و « عليك » متعلق به

وتارة يأتى لفظ « كفى » متعديا ، كما فى قوله - تعالى - « وكفى الله المؤمنين القتال .. »

ثم ساق - سبحانه - قاعدة كلية ، لتحمل كل إنسان نتيجة عمله ، فقال - تعالى - « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ... »

والفعل « تزر » من الوزر بمعنى الإثم والحمل والثقل . يقال : وزر يزر وزرا ، أى : أثم ، أو حمل حملا ثقيلا ، ومنه سمى الوزير ، لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة .

أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم فى حياته العمل الصالح ، فثمرة هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن الطريق القويم ، وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب .

وقد تكرر هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . »[1]

وقوله - تعالى - : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ، ولو كان ذا قربى .. »[2]

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٤

(٢) سورة فاطر الآية ١٨

ولا يتنافى هذا مع قوله ـ تعالى ـ : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . . »(١)

وقوله ـ تعالى ـ : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . . »(٢)

لأن المقصود فى هاتين الآيتين وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، ويحملون فوق ذلك جانبا من ذنوب من كانوا هم سببا فى ضلالهم . لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها — كما جاء فى الحديث الصحيح — ، فهم يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التى كانوا سببا فى ارتكاب غيرهم لها .

كذلك لا يتنافى قوله ـ تعالى ـ : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » مع ما ثبت فى الحديث الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما ـ من « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . . »

لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك قبل موته ، أو أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود . . فتعذيبه بسبب تفريطه ، وعدم تنفيذه لقوله ـ تعالى ـ « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة . . . »(٣)

وقوله ـ تعالى ـ « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده ـ ورأفته بهم ، وكرمه معهم .

قال الآلوسى : قوله : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، بيان للعناية

(١) سورة العنكبوت الآية ١٣
(٢) سورة النحل الآية ٢٥
(٣) سورة التحريم الآية ٦

الربانية إثر بيان آثار الهداية والضلالة بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته . وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها .

أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة ... أن نعذب أحدا بنوع ما من العذاب دنيويا كان أو أخرويا ، على فعل شىء أو ترك شىء ، أصليا كان أو فرعيا ، حتى نبعث « إليه » رسولا ، يهدى إلى الحق ، ويردى عن الضلال ، ويقيم الحجج ، ويمهد الشرائع ... »(١)

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، تشبه هذه الآية ، فى بيان أن الله ـ تعالى ـ لا يعذب أحدا من خلقه ، حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره ، فيعصى ذلك الرسول ، ويستمر فى كفره وضلاله بعد التبشير والإنذار .

ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ : « رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما »(٢) .

وقوله ـ تعالى ـ : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آيتك من قبل أن نذل ونخزى »(٣) .

وقوله ـ تعالى ـ : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ... »(٤)

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » : هذا إخبار عن عدله ـ تعالى ـ ، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٣٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥

(٣) سورة طه الآية ١٣٤

(٤) سورة المائدة الآية ١٩

الحجة عليه ، بإرسال الرسول إليه ، كما قال - تعالى - : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء . . . . »

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله - تعالى - لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه . . . »(١)

هذا ، وما ذهب إليه الأمام ابن كثير ، والامام الآلوسى ، من أن الله - تعالى - اقتضت رحمته وعدالته ، أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، عن طريق إرسال الرسل ، هو الذي نعتقده ، وتطمئن إليه نفوسنا ، لأنه هو الظاهر من معاني الآيات الكريمة ، ولأنه هو المناسب لرحمة الله - تعالى - التي وسعت كل شيء .

وهناك من يرى أن من مات على الكفر فهو في النار ، ولو لم يرسل الله - تعالى - إليه رسولا ، واستدلوا بأدلة لا مجال لذكرها هنا(٢) .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه في إهلاك الأمم ، وفي حال الذين يريدون العاجلة ، وحال الذين يريدون الآجلة ، فقال - تعالى - :

« وإذَا أردْنَا أن نُهلِكَ قريةً أَمَرْنَا مُترفِيها ففَسقُوا فيها فحَقَّ عليها القولُ فدمَّرناهَا تدميراً (١٦) وكم أَهلَكْنَا من القُرونِ مِنْ بَعد نُوحٍ وكفَى بِرَبِّكَ بذُنوبِ عِبَاده خبيراً بصيراً (١٧) من كانَ يريدُ العاجلةَ عجَّلنا لهُ فيها ما نشاءُ لمَنْ نُريدُ ، ثم جَعلْنا له جَهنَّمَ يصلاَهَا مذمُوماً مدحوراً (١٨) ومَنْ أرادَ الآخرةَ وسعَى لهَا سعْيَهَا وهوَ مؤمِنٌ فأولئكَ كانَ سعيُهم مشكوراً (١٩) كُلاًّ نُمِد هؤلاء وهَؤلاَء من عَطَاء

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ٥٠

(٢) راجع تفسير الآلوسى حـ ١٥ ص ٣٧ ، وتفسير أضواء البيان حـ ٣ ص ٤٢٩ للشيخ الشنقيطى

رَبِّكَ ، وما كانَ عطاء ربِّكَ محْظوراً (٢٠) انظُرْ كيفَ فضَّلْنا بعضهم على بعضٍ ، وللآخرةُ أكبرُ درَجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً (٢١) لا تَجعلْ مع اللهِ إلهاً آخرَ فتقعُدَ مذموماً مخذولاً (٢٢) » .

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ : لما ذكر ـ تعالى ـ في الآية السابقة ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم ؛ وهي مخالفة أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والتمادى على الفساد ـ فقال ، سبحانه ـ : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . . . »[1]

وقوله ـ سبحانه ـ « أمرنا » من الأمر الذى هو ضد النهى ، والمأمور به هو الإيمان والعمل الصالح ، والشكر لله رب العالمين . وحذف لظهوره والعلم به .

وقوله « مترفيها » جمع مترف ، وهو المتنعم الذى لا يمنع من تنعمه ، بل يترك يفعل ما يشاء . يقال : ترف فلان ـ كفرح ـ أى : تنعم ، وفلان أترفته النعمة ، أى : أطغته وأبطرته لأنه لم يستعملها فى وجوهها المشروعة .

والمراد بهم . أصحاب الجاه والغنى والسلطان ، الذين أحاطت بهم النعم من كل جانب ، ولكنهم استعملوها فى الفسوق والعصيان ، لا فى الخير والإحسان .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا فى الأرض فسادا :

وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث إلى أهل تلك القرية ،

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ١٧

وعلى ألسنة المصلحين المتبعين لهذا الرسول والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وقال - سبحانه - «وإذا أردنا أن نهلك قرية...» مع أن الهلاك لأهلها، للإشارة إلى أن هذا الهلاك لن يصيب أهلها فقط، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما احتوته تلك القرية، بحيث تصير هي وسكانها أثرا بعد عين.

وخص مترفيها بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة، فإذا ما استجابوا للأمر إستجاب غيرهم تبعا لهم في معظم الأحيان، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب مانهى الله عنه، وإلى الانغماس في المتع والشهوات...

والحكمة من هذا الأمر، هو الإعذار والإنذار، والتخويف والوعيد.

كما قال - تعالى - : «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل...»[1].

وهذا التفسير للآية الكريمة، سار عليه جمهور المفسرين.

ولصاحب الكشاف رأى يخالف ذلك، فهو يرى أن الأمر في الآية الكريمة مجاز عن إمدادهم بالنعم الكثيرة التي أبطرتهم.

قال - رحمه الله - : قوله تعالى - : «وإذا أردنا» وإذا دنا وقت إهلاك قوم، ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم «ففسقوا» أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا.

والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازا. ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب

(١) سورة النساء الآية ١٦٥

إملاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر . كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إيثار الطاعة ، على المعصية ، فآثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم . . »[1]

ومن المفسرين من يرى أن قوله تعالى ـ « أمرنا » بمعنى كثرنا ـ بتشديد الثاء ـ وقرىء « أمّرنا » بتشديد الميم ، أي : كثرنا مترفيها وجعلناهم أمراء مسلطين . . .

ولكن هذه القراءة . وقراءة « آمرنا » بمعنى « كثرنا » أيضا . ليستا من القراءات السبعة أو العشرة ، وإنما هما من القراءات الشاذة

قال الإمام ابن جرير : « وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب . قراءة من قرأ « أمرنا » ـ بقصر الألف وتخفيف الميم ـ لإجماع الحجة من القراء بتصويبها دون غيرها وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة ، فأولى التأويلات به تأويل من تأوله : أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها . فحق عليهم القول ، لأن الأغلب من معنى « أمرنا » : الأمر الذي هو خلاف النهي دون غيره ،

وتوجيه معاني كلام الله ـ جل ثناؤه ـ إلى الأشهر الأعرف من معانيه ، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره . . . »[2] .

ويبدو لنا أن الرأي الأول الذي سار عليه جمهور المفسرين ، وعلى رأسهم الإمام ابن جرير ، أولى بالقبول ، لأسباب منها :

أن القرآن الكريم يؤيده في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . . . »[3] .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٤٤٢

(٢) تفسير ابن جرير حـ ١٥ ص ٤٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

فقوله ـ تعالى ـ « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء » دليل واضح على أن قوله ـ سبحانه ـ : « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها .... » معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وليس معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يأمر لا بالفسق ولا بالفحشاء .

ومنها : أن الأسلوب العربي السليم يؤيده ، لأنك إذا قلت : أمرته فعصاني كان المعنى المتبادر والظاهر من هذه الجملة : أمرته بالطاعة فعصاني ، وليس معناه . أمرته بالعصيان فعصاني :

ومنها : أن حمل الكلام على الحقيقة ـ كما سار جمهور المفسرين ـ اولى من حمله على المجاز ـ كما ذهب صاحب الكشاف ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » بيان لما نزل بهذه القرية وأهلها من عذاب محاها من الوجود ، إذ التدمير هو الإهلاك مع طمس الأثر ، وهدم البناء .

أى : أمرنا مترفيها بطاعتنا وشكرنا ، فعصوا أمرنا وفسقوا فيها ، فثبت وتحقق عليها عذابنا ، فأهلكناها إهلاكا استأصل شأفتها ، وأزال آثارها .

وأكد ـ سبحانه ـ فعل التدمير بمصدره ، للمبالغة فى إبراز شدة الهلاك الواقع على تلك القرية الظالم أهلها .

قال الآلوسى ما ملخصه : والآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم ، لصدور الفسق منهم جميعا ، فإن غير المترف يتبع المترف عادة ...

وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال ـ تعالى ـ « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .... » .

وقد صح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أنها قالت : قلت، يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هذه القرية لم تكن بدعا فى نزول العذاب بها ، بل هناك قرى كثيرة عتت عن أمر ربها فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، فقال - تعالى - : وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح . . . » .

و « كم » هنا خبرية أى : أن معناها الإخبار عن عدد كثير . وهى فى محل نصب مفعول به لجملة « أهلكنا » و « من » فى قوله - تعالى - « من القرون » بيان للفظ « كم » وتمييز له كما يميز العدد بالجنس . وأما « من » فى قوله - تعالى - « من بعد نوح » فهى لابتداء الغاية .

والقرون : جمع قرن ، ويطلق على القوم المقترنين فى زمان واحد . والمشهور أن مدته مائة سنة .

أى أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها ، وعصيانهم لأمرنا . ليست هى القرية الوحيدة التى نزل بها عذابنا ، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح - عليه السلام - كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى وآثروا الكفر على الإيمان والغى على الرشد .

وخص نوح - عليه السلام - بالذكر . لأنه أول رسول كذبه قومه وآذوه وسخروا منه . . . فأهلكهم الله - تعالى - بالطوفان .

قال ابن كثير : ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام »[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٥٩ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال - تعالى - : « وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » .

أي : وكفى بربك - أيها الرسول الكريم - إحاطة وإطلاعا وعلما بما يقدمه الناس من خير أو شر ، فإنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى .

والآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - فهي - أيضا - تهديد للمشركين ، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم ، ومعاداتهم للحق ، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم فسيكونون محلا لغضب الله - تعالى - وسخطه ، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود .

وشبيه بهذه الآية قوله -تعالى- : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها »(١) .

وقوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »(٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة ، فقال - تعالى - : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » . .

والمراد بالعاجلة : دار الدنيا ، وهي صفة لموصوف محذوف أي : الدار العاجلة التي ينتهي كل شيء فيها بسرعة وعجلة .

أي : من كان يريد بقوله وعمله وسعيه ، زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب ، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة ، « عجلنا له فيها » أي : عجلنا لذلك الإنسان في هذه الدنيا ، « ما نشاء » تعجيله له من زينتها ومتعها . . .

---

(١) سورة محمد الآية ١٠ .

(٢) سورة ق الآية ١٦

وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس لكل الناس، وإنما هو «لمن نريد» عطاءه منهم، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا.

فأنت ترى أنه ـ سبحانه ـ قد قيد العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: «من كانت العاجلة همه، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد. فقيد الأمر تقييدين: أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل بإرادته.

وهكذا الحال، ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون مايتمنون ولايعطون إلا بعضا منه، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة. وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده، وهو غنى الآخرة فما يبالى أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت. فإن أوتى فبها، وإن لم يؤت فربما كان الفقر خيرا له، وأعون على مراده.

وقوله «لمن نريد» بدل من «له» وهو بدل البعض من الكل، لأن الضمير يرجع إلى «من» وهو فى معنى الكثرة[1] ومفعول نريد محذوف. أى: لمن نريد عطاءه.

وقوله: ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، بيان لسوء مصير هذا المريد للعاجلة فى الآخرة.

و«يصلاها» أى: يلقى فيها ويذوق حرها وسعيرها: يقال: صليت الشاة: شويتها. وصلى فلان بالنار ـ من باب تعب ـ إذا وجد حرها.

و«مذموما» من الذم الذى هو ضد المدح.

و«مدحورا» من الدحور بمعنى الطرد واللعن. يقال: دحره دحرا ودحورا. إذا طرده وأبعده.

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٣.

أي : من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها أعطيناه منها مانشاء إعطاءه له ، أما في الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها ، ويصلى حرها ولهيبها ، حالة كونه « مذموما » أي : مبغوضا بسبب سوء صنيعه ، « مدحورا » أي : مطرودا ومبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال الإمام الرازي ماملخصه : وفي لفظ هذه الآية فوائد : منها : أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم ، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة . فقوله : « ثم جعلنا لهم جهنم يصلاها » إشارة إلى المضرة العظيمة . وقوله « مذموما » إشارة إلى الإهانة والذم . وقوله « مدحورا » إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله - تعالى -

وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة ، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص ... »[1] .

وقوله - سبحانه - « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤثرين لمتع الدنيا وشهواتها .

أي : ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة ، ومافيها من عطاء غير مقطوع ، وسعى لهذه الدار سعيها الذي يوصله إلى مرضاة الله - تعالى - حالة كونه مؤمن بالله - تعالى - وبكل مايجب الإيمان به ، « فأولئك » الذين فعلوا ذلك ، « كان سعيهم » للدار الآخرة سعيا « مشكورا » من الله - تعالى - ، حيث يقبله - سبحانه - منهم ، ويكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - وعبر - عز وجل بالسعي عن أعمالهم الصالحة ، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء مايرضيه - تعالى - بدون إبطاء أو تأخير ، إذ السعي يطلق على المشي الذي تصاحبه السرعة .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٠ ص ١٧٨ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وفى الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لاتنفع إلا مع الايمان بالله – تعالى – لأن الكفر سيئة لاتنفع معها حسنة .

ولذا قال – سبحانه – « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن .... » .

وقد أوضح – سبحانه – هذا فى آيات كثيرة ، منها قوله – تعالى – : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة .... » .

ومفهوم هذه الآية وأمثالها ، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا فى الدنيا لاينفعه فى الآخرة لفقد شرط الإيمان . قال – تعالى – : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها »[1] .

ثم ساق – سبحانه – بعد ذلك مايدل على كمال قدرته ، وسعة عطائه فقال: « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا » ولفظ « كلا » هنا : مفعول به للفعل نمد ، والتنوين عوض عن المضاف إليه . أى : نمد كل واحد من الفريقين .

وقوله « نمد » من الإمداد بمعنى الزيادة . يقال : أمد القائد الجيش بالجند، إذا زاده وقواه .

والمراد باسم الإشارة الأول « هؤلاء » : المؤثرون للعاجلة ، والمراد بالثانى الراغبون فى ثواب الآخرة .

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٢ ص ٤٨ ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والمعنى : كلا من الفريقين نمده من فضلنا وإحساننا . فنعطى مانريد إعطاءه لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة ، دون أن ينقص مما عندنا شيء ، ودون أن يخرج عن مشيئتنا شيء .

« وما كان عطاء ربك ، أيها الرسول الكريم « محظورا » ، أى : ممنوعا لا عن المؤمن ولا عن الكافر ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

من الحظر بمعنى المنع يقال : حظره يحظره - من باب قتل - فهو محظور ، أى : ممنوع .

ثم أمر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل فى أحوال خلقه ، ليزدادوا عظة وعبرة ، فقال : « أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

أى : أنظر - أيها العاقل - نظر تأمل وتدبر واعتبار فى أحوال الناس ، لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض فى هذه الحياة ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا قوى وذاك ضعيف ، وهذا ذكى وذاك خامل ، وهذا مالك وذاك مملوك ...

إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس فى هذه الدنيا ، على حسب ماتقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته ، ومشيئته .

أما فى الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا فى الدرجات والمنازل ، مما كانوا عليه فى الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ماملخصه : وقوله « وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » أى : ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلا ونعيمها وسرورها . ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ؛ فإن فى الجنة مائة درجة مابين

كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين : « إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء »[١] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الأمم ، وأنه - تعالى - ما أهلكها إلا بعد أن عتت عن أمره ، وعصت رسله كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يؤثرون متع الدنيا على طاعة الله - تعالى - ، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما فيها من ثواب جزيل ، وأن الفريقين لا ينالون مما يطلبونه إلا ما قدره الله - تعالى - لهم ، وأن عطاءه للناس جميعا لا ينقص مما عنده شيئا ، وأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت تفضيل بعض الناس على بعض فى الدنيا والآخرة ، وصدق - عز وجل - حيث يقول : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

ثم ساق - سبحانه - بضع عشرة آية ، تناولت مجموعة من التكاليف تزيد على عشرين أمراً ونهيا .

وهذه التكاليف قد افتتحت بالنهى عن الإشراك بالله - تعالى -، وبالأمر بالإحسان إلى الوالدين . قال - تعالى - :

« وقَضَى ربُّكَ أَنْ لاَ تعبُدوا إلاَّ إياهُ وبالوالِدَيْنِ إحساناً ، إمَّا يَبلغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهُما أو كلاهُما، فلاَ تَقلْ لهُما أُفٍّ ولا تنهَرْهُما وقل لهُما قولاً كريماً (٢٣) واخْفِضْ لهُما جَناحَ الذُّلِّ من الرَّحمةِ ، وقُلْ ربِّ ارْحَمْهُمَا كمَا ربَّيَانِي صَغيراً (٢٤) ربكُمْ أَعْلَمُ بمَا فى نفُوسِكُم إنْ تكونُوا صالِحِينَ ، فإنَّه كانَ للأوَّابِينَ غفُوراً (٢٥) » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٦٠ - طبعة دار الشعب بالقاهرة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : بعد أن بين ـ سبحانه ـ أن الناس فريقان: فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة ، وثانيها : أن يسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة ، وثالثها : أن يكون مؤمناً .

لاجرم فصل فى هذه الآيات تلك المجملات : فبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان . . . ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال . . . (١) .

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ « لاتجعل . . . » لكل من يصلح له .

والقعود فى قوله « فتقعد » . . قيل بمعنى المكث : كما يقول القائل : فلان قاعد فى أسوأ حال ، أى : ماكث فى أسوأ حال سواء أكان قاعداً أم غير قاعد. وقيل بمعنى العجز ، لأن العرب تقول : فلان ما أقعده عن المكارم ، أى ما أعجزه عنها ، وقيل هو بمعنى الصيرورة ، من قولهم : فلان شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أى صارت .

والذى تطمئن إليه النفس أن القعود على حقيقته ، لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً نادما على مافرط منه .

وقوله ـ سبحانه ـ : « مخذولا » من الخذلان ، وهو « ترك النصرة عند الحاجة إليها .

يقال : خذل فلان صديقه ، أى : امتنع عن نصره وعونه مع حاجته الشديدة إليهما

والمعنى : لاتجعل ـ أيها المخاطب ـ مع الله ـ تعالى ـ إلها فى عبادتك أو خضوعك ، فتقعد جامعاً على نفسك مصيبتين :

مصيبة الذم من الله ـ تعالى ـ ومن أوليائه، لأنك تركت عبادة من له الخلق والأمر ، وعبدت مالا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ,

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٠ ص ١٨٢

ومصيبة الخذلان، بحيث لاتجد من يعينك أو ينصرك، فى ساعة أنت أحوج ما تكون فيها إلى العون والنصر .

وجاء الخطاب فى قوله ـ تعالى ـ « لاتجعل » عاما ، لكى يشعر كل فرد يصلح للخطاب أن هذا النهى موجه إليه ، وصادر إلى شخصه لأن سلامة الاعتقاد مسألة شخصية ، مسئول عنها كل فرد بذاته ، وسيتحمل وحده تبعة انحرافه عن طريق الحق « يوم لاينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » .

وقوله « فتقعد » منصوب لأنه وقع بعد الفاء جوابا للنهى . وقوله «مذموما مخذولا » حالان من الفاعل .

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لحال الإنسان المشرك ، وقد حط به الذم والخذلان ، فقعد مهموما مستكينا عاجزا عن تحصيل الخيرات ، وعن السعى فى تحصيلها .

قال الآلوسى : « وفى الآية الكريمة إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة »(١) .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ الأساس فى قبول الأعمال ، وهو إخلاص العبادة له ـ عز وجل ـ وحده ، أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من شرائط الإيمان الحق وشعائره ، فقال ـ تعالى ـ « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا . . . » .

قال القرطبى ماملخصه : « قضى » أى : أمر وألزم وأوجب . . .

والقضاء يستعمل فى اللغة على وجوه ، فالقضاء بمعنى الأمر ، كما فى هذه الآية ، والقضاء بمعنى الخلق ، كقوله « فقضاهن سبع سموات فى يومين » يعنى خلقهن ، والقضاء بمعنى الحكم ، كقوله ـ تعالى ـ « فاقض ماأنت قاض » يعنى:

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٥٣ .

احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ من الشيء ، كقوله « قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » أي فرغ منه .

والقضاء بمعنى الإرادة ، كقوله - تعالى - « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . . . »(١).

والمعنى : لقد نهى ربك عن الاشراك به نهيا قاطعا ، وأمر أمراً محكما لايحتمل النسخ ، بأن لاتعبدوا أحداً سواه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شيء إلا بإذنه - سبحانه -.

فالجملة الكريمة أمر لازم لإخلاص العبادة لله ، بعد النهي عن الإشراك به في قوله - تعالى - « لاتجعل مع الله إلهاً آخر . . . » .

وقد جاء هذا الأمر بلفظ « قضى » زيادة في التأكيد ، لأن هذا اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعي الذي لا رجعة فيه ، كما أن اشتمال الجملة الكريمة على النفي والاستثناء - وهما أعلا مراتب القصر - يزيد هذا الأمر تأكيداً وتوثقا .

ثم اتبع - سبحانه - الأمر بوحدانيته ، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال : « وبالوالدين إحسانا . . . » .

أي : وقضى - أيضا - بأن تحسنوا - أيها المخاطبون - إلى الوالدين إحسانا كاملا لا يشوبه سوء أو مكروه .

وقد جاء الأمر بالاحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العبادة لله . في آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - : « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا . . . »(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

وقوله ـ تعالى ـ « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا . . . »[١] .

ولعل السر فى ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين ، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان فى هذه الحياة ، وهما اللذان لقيا مالقيا من متاعب من أجل راحة أولادهما ، فيجب أن يقابل مافعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل .

قال بعض العلماء: وقدجاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب، وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الاساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها . . . »[٢] .

ثم فصل ـ سبحانه ـ مظاهر هذا الاحسان فقال : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . . . » .

و « إما » حرف مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة عليها للتأكيد ، وقوله : « أحدهما » فاعل . يبلغن » . وقرأ حمزة والكسائى « إما يبلغان » فيكون قوله « أحدهما » بدل من ألف الاثنين فى « يبلغان » .

وقوله « فلا تقل لهما أف » جواب الشرط .

قال الآلوسى : و « وأف » اسم صوت ينبىء عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر . . .

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٤ لفضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ .

وفيه نحو من أربعين لغة . والوارد من ذلك فى القراءات سبع . ثلاث متواترة ، وأربعة شاذة .

فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين ، وهو للتنكير ، فالمعنى : فلا تقل أتضجر تضجرا ما .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين . والباقون بالكسر بدون تنوين . . . »(١) .

وقوله « ولا تنهرهما » من النهر بمعنى الزجر ، يقال نهر فلان فلانا إذا زجره بغلظة .

والمعنى : كن - أيها المخاطب - محسناً إحسانا تاماً بأبويك ، فإذا ما بلغ « عندك » أى : فى رعايتك وكفالتك « أحدهما أو كلاهما » سن « الكبر » والضعف « فلا تقل لهما » أف « أى : قولا يدل على التضجر منهما والاستثقال لأى تصرف من تصرفاتهما .

قال البيضاوى : والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسا بطريق الأولى ، وقيل عرفا كقولك : فلان لا يملك النقير والقطمير - فإن هذا القول يدل على أنه لا يملك شيئا قليلا أو كثيراً -(٢) .

وقوله « ولا تنهرهما » أى : ولا تزجرهما عما يتعاطيانه من الأفعال التى لا تعجبك ،

فالمراد من النهى الأول : المنع من إظهار التضجر منهما مطلقا .

والمراد من النهى الثانى : المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتغليظ فى القول .

والتعبير بقوله : « عندك » يشير إلى أن الوالدين قد صارا فى كنف

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٥٥ .

(٢) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٥٨٢ .

الإبن وتحت رعايته ، بعد ان بلغ أشده واستوى ، وبعد أن أصبح مسئولا عنهما ، بعد أن كانا هما مسئولين عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : معنى « عندك » ؟ قلت هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه فى حالة الطفولة فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ، ولين الجانب ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره مايستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه . . . »[1]

والتقييد بحالة الكبر فى قوله - تعالى - « إما يبلغن عندك الكبر » جرى مجرى الغالب ، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية فى حالة الكبر ، أكثر من احتياجهما إلى ذلك فى حالة قوتهما وشبابهما ، وإلا فالإحسان إليهما ، والعناية بشأنهما ، واجب على الأبناء سواء أكان الآباء فى سن الكبر أم فى سن الشباب أم فى غيرهما .

وقوله - سبحانه - : « وقل لهما قولا كريما » أمر بالكلام الطيب معهما ، بعد النهى عن الكلام الذى يدل على الضجر والقلق من فعلهما .

أى : وقل لهما بدل التأفيف والزجر ، قولا كريما حسنا ، يقتضيه حسن الأدب معهما ، والاحترام لهما ، والعطف عليهما .

وقوله « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . . » زيادة فى تبجيلهما والتلطف معهما فى القول والفعل والمعاملة على اختلاف ألوانها .

أى : بجانب القول الكريم الذى يجب أن تقوله لهما ، عليك أن تكون متواضعا معهما ، متلطفا فى معاشرتهما ، لاترفع فيهما عينا ، ولاترفض لهما قولا ، مع الرحمة التامة بهما ، والشفقة التى لانهاية لها عليهما .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٤ .

قال الإمام الرازى ماملخصه : قوله « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » المقصود منه المبالغة فى التواضع .

وذكر القفال فى تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية . فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك .

والثانى : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كناية عن التواضع[1] .

وإضافة الجناح إلى الذل إضافة بيانية ، أى : اخفض لهما جناحك الذليل و « من » فى قوله « من الرحمة » ابتدائية . أى تواضع لهما تواضعا ناشئا من فرط رحمتك عليهما .

قال الآلوسى : وإنما احتاجا إلى ذلك ، لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، واحتياج المـــرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة ، كما قال الشاعر :

يامن أبى يسألنى عن فاقتى ... ماحال من يسأل من سائله ؟
ماذلة السلطان إلا إذا ... أصبح محتاجا إلى عامـــله

وقوله « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » تذكير للإنسان بحال ضعفه وطفولته ، وحاجته إلى الرعاية والحنان .

أى : وقل فى الدعاء لهما : يارب ارحمهما برحمتك الواسعة ، واشملهما بمغفرتك الغامرة ، جزاء ما بذلا من رعاية لى فى صغرى ، فأنت القادر على مثوبتهما ومكافأتهما .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩١ .

قال الجمل : والكاف فى قوله « كما ربيانى . . » فيها قولان : أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف .

أى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما لى والثانى أنها للتعليل . أى : ارحمهما لأجل تربيتهما لى ، كما فى قوله « واذكروه كما هداكم »(١) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات التى سمت بمنزلة الوالدين ، بما يدل على كمال علمه ، وعلى التحذير من عقابه ، فقال ـ تعالى ـ : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا » .

والأوابون : جمع أواب . وهو الكثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله ـ تعالى ـ يقال : آب فلان يئوب إذا رجع .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : الأواب هو التائب من الذنب، الراجع عن معصية الله إلى طاعته ، ومما يكرهه إلى مايرضاه ، لأن الأواب إنما هو فعال من قول القائل : آب فلان من سفره إلى منزله ، كما قال الشاعر :

وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يؤوب(٢)

أى : ربكم ـ أيها الناس ـ أعلم بما فى نفوسكم ، وضمائركم ، سواء أكان خيرا أو شرا ، وسواء أكنتم تضمرون البر بآبائكم أم تخفون الإساءة إليهما ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين ، أى : قاصدين الصلاح والبر بهما ، والرجوع عما فرط منكم فى حقهما أو فى حق غيرهما ، فالله ـ تعالى ـ يقبل توبتكم ، فإنه ـ سبحانه ـ بفضله وكرمه كان للأوابين ، أى الرجاعين إليه بالتوبة عما فرط منهم ، غفورا لذنوبهم .

فالآية الكريمة وعيد لمن تهاون فى حقوق أبويه، وفى كل حق أوجبه الله عليه ، ووعد لمن رجع إليه ـ سبحانه ـ بالتوبة الصادقة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٥٢ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت بالإحسان إلى الوالدين، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة في قلوب الأبناء ، ويحثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما ، وتحذيرهم من الإساءة إليهما ، ويفتح باب التوبة أمام من قصر في حقهما أو حق غيرهما .

وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء ، ولم يفعل ذلك مع الآباء .

وذلك لأن الحيـــاة - كما يقول بعض العلماء - وهي مندفعة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام . إلى الذرية. إلى الناشئة الجديدة. إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المولية . إلى الجيل الذاهب .

ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد. إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات ، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ، كذلك يمتص الأولاد ، كل رحيق . وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .

فأما الأولاد فسرعان ماينسون هذا كله وينفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لايحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استشاجة وجدانهم بقوة ، ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله »[١] .

هذا ، وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، كثيرا من الأحاديث والآثار التي توجه الأبناء إلى رعاية الآباء ، واحترامهم ، والعطف عليهم ، والرحمة بهم ، والاهتمام بشئونهم .

قال الإمام ابن كثير : وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صعد المنبر قال : آمين . آمين . آمين .

فقالوا : يارسول الله ، علام أمنت ؟ قال : أتاني جبريل فقال : يامحمد ، رغم أنف امرىء ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل : آمين . ثم قال : رغم أنف امرىء دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة . قل آمين فقلت آمين » .

وعن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله ، هل بقي على من بر أبوى شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال نعم، خصال أربع . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لارحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما »[٢] .

وقال القرطبي : أمر الله ـ سبحانه ـ بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك . كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » .

---

(١) « في ظلال القرآن » ج ١٥ ص ٢٢٢١

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٢ .

وقال : « إن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله قال : سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أى الأعمال أحب إلى الله ـ تعالى ـ ؟

قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت ثم أى : قال : الجهاد فى سبيل الله ...

ثم قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : ومن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن من برهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ، مالم يكن ذلك الأمر معصية

ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما .

ففى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أمى وهى مشركة فاستفتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها ـ أى وهى راغبة فى برى وصلتى ، أو وهى راغبة عن الإسلام كارهة له ـ قال : صلى أمك » .

ثم قال القرطبى : ومن الإحسان إليهما والبر بهما ، إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما . فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستأذنه فى الجهاد فقال : أحى والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد .

قال ابن المنذر : فى هذا الحديث النهى عن الخروج بغير إذن الأبوين مالم يقع النفير ، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع ...

ثم قال : ومن تمام برهما صلة أهل ودهما ، ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى » ...

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يهدى لصدائق خديجة برابها ووفاء لها وهى زوجتا ، فما ظنك بالوالدين »[1] . . .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ مايجب على الإنسان نحو خالقه ـ عز وجل ـ ونحو والديه ، أتبع ذلك ببيان مايجب على هذا الإنسان نحو أقاربه، ونحو المسكين وابن السبيل ، ونحو ماله الذى هو نعمة من نعم لله عليه . فقال ـ تعالى ـ :

« وآتِ ذَا القُرْبَى حقَّهُ والمِسْكِينَ وابنَ السبيلِ ، ولا تُبذِّرْ تبذيراً (٢٦) إنَّ المبذِّرِينَ كانُوا إخوانَ الشياطينِ ، وكانَ الشيطانُ لربِّهِ كفُوراً (٢٧) وإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربِّكَ ترجُوها ، فَقُلْ لهُم قولاً ميسُوراً (٢٨) ولا تَجْعَلْ يَدكَ مَغْلُولةً إلى عنُقِكَ ولا تبسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ ملوماً محسُوراً (٢٩) إنَّ ربَّكَ يبسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاَء ويقدِرُ ، إنَّه كانَ بعبادِهِ خبيراً بصيراً (٣٠) » .

قال أبو حيان فى البحر : « لما أمر الله ـ تعالى ـ ببر الوالدين ، أمر بصلة القرابة . قال الحسن : نزلت فى قرابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله : « إما يبلغن عندك الكبر . . » والحق هنا مايتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه . قال نحوه : ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم »[2] .

والمراد بذوى القربى : من تربطك بهم صلة القرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢١٨ .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ٢٩

والمسكين : هو من لا يملك شيئا من المال ، أو يملك مالا يسد حاجته . وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية ، لأنهم - فى الغالب - يفضلون الاكتفاء بالقليل ، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قالوا : فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لايجد غنى يغنيه ، ولايفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » .

وابن السبيل هو المسافر المنقطع عن ماله سمى بذلك - كما يقول الآلوسى لملازمته السبيل - أى: الطريق فى السفر . أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته»[1].

وهذا النوع من الناس - أيضا - فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة ، حتى يستطيع الوصول إلى بلده .

وفى هذا الأمر تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ، ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة .

والمعنى : وأعط - أيها العاقل - ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر ، وصلة الرحم ، والمعاونة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والوقوف إلى جانبهم فى السراء والضراء ، ونحو ذلك مما توجبه تعاليم دينك الحنيف .

وأعط - كذلك - المسكين وابن السبيل حقوقهما التى شرعها الله - تعالى - لهما ، من الإحسان إليهما ، ومعاونتهما على مايسد حاجتهما .

وقدم - سبحانه - الأقارب على غيرهم ، لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم ، عن سليمان بن عامر قال :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ٤٦ .

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة ،

وقوله — سبحانه — : « ولا تبذر تبذيرا » نهى عن وضع المال فى غير موضعه الذى شرعه الله — تعالى — مأخوذ من تفريق البذر وإلقائه فى الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، ثم استعير لتضييع المال فى غير وجوهه .

قال صاحب الكشاف : التبذير تفريق المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه الإسراف ، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله — تعالى — بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف ... »[1]

وقال ابن كثير : وقوله « ولا تبذر تبذيرا » : لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطا ، كما قال — تعالى — : والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق فى غير حق . وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذراً . ولو أنفق مُدًّا فى غير حقه كان تبذيرا »[2]

وقوله : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وكان الشيطان لربه كفورا » تعليل للنهى والتبذير ، وتنفير منه بأبلغ أسلوب

والمراد بأخوة الشياطين : المماثلة لهم فى الصفات السيئة ، والسلوك القبيح .

قال الإمام الرازى : والمراد من هذه الإخوة ، التشبيه بهم فى هذا الفعل

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٤٠٦

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ٦٦ طبعة دار الشعب

القبيح، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخا له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود. وأخو السفر، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال(١)

أى: كن — أيها العاقل — متوسطا فى نفقتك، ولا تبذر تبذيرا. لأن المبذرين يماثلون ويشابهون الشياطين فى صفاتهم القبيحة، وكان الشيطان فى كل وقت وفى كل حال جحودا لنعم ربه، لا يشكره عليها، بل يضعها فى غير ما خلقت له هذه النعم

وفى تشبيه المبذر بالشيطان فى سلوكه السيء، وفى عصيانه لربه، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التى يجب على العاقل أن يبتعد عنها، حتى لا يكون مماثلا للشيطان الجاحد لنعم ربه.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله فى حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين، فقال - تعالى -: «وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها، فقل لهم قولا ميسورا».

ولفظ «إما» مركب من «إن» الشرطية، ومن «ما» المزيدة. أى: وإن تعرض عنهم.

وقوله «تعرضن» من الإعراض، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه، بسبب عدم القدرة على تلبية طلبه.

وقوله «ابتغاء» مفعول لأجله منصوب بتعرضن. وهو من باب وضع المسبب موضع السبب. لأن الأصل: وإما تعرضن عنهم لإعسارك.

والمراد بالرحمة: إنتظار الحصول على الرزق، وحلول الفرج بعد الضيق

والميسور: اسم مفعول من يسر الأمر - بالبناء المفعول - مثل سعد الرجل، ومعناه: السهل اللين.

والمعنى: وإما تعرضن — أيها المخاطب - عن ذى قرابتك وعن المسكين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٣

وابن السبيل ، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله ـ عز وجل ـ فقل لهم فى هذه الحـالة قولاً لينا رفيقا يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثـلا ـ : ليس عندى اليوم ما أقدمه لكم ، وان يرزقنى الله بشىء فسأجعل لكم نصيبا منه .

قال القرطبى ما ملخصه : وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم ، وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله ـ تعالى ـ فتح باب الخير ، لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك الحال « فقل لهم قولا ميسورا » أى لينا لطيفا . . ولقد أحسن من قال :

إن لم تـكن وَرِقٌ يوماً أجود بها ... للسائلين فإنى لـينُ العـود
لا يعدم السائلون الخير من خلق ... إما نوالى وإما حسنُ مردود[1]

ثم أرشد ـ سبحانه ـ عباده إلى أفضل الطرق لإنفاق أموالهم والتصرف فيها ، فقال ـ تعالى ـ « ولا تجعـل يدك مغلولة إلى عنقـك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا » .

وقوله « مغلولة » من الغل ـ بضم الغين ـ وأصله الطوق الذى يجعل فى العنق وتربط به اليد ، كما يربط المذنب والأسير . وهو كناية عن البخل والتقتير .

قال صاحب الـكشاف ما ملخصه : غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة . حتى أنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٤٩ .

لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليـــد وقبضها عبارتين متعاقبتين للبخل والجود ... »[1] .

وقوله « محسورا » من الحسور بمعنى الانقطاع عن الشيء ، والعجز عن الحصول عليه .

يقال : فلان حسره السير ، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق برفقائه .

ويقال : بعير محسور . أي : ذهبت قوته وأصابه الكلل والإعياء،فصار لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال .

والمقصود من الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق ، والنهى عن البخل والإسراف .

وقد شبه ــ سبحانه ــ حال البخيل ، بحال من يده مربوطة إلى عنقه ربطا محكما بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها .

وشبه حال المسرف والمبذر ، بحال من مد يده وبسطها بسطا كبـــيرا ، بحيث أصبحت لا تمسك شيئا يوضع فيها سواء أكان قليلا أم كثيرا .

والمعنى : كن - أيها الإنسان - متوسطا فى كل أمورك ، ومعتدلا فى إنفاق أموالك ، بحيث لا تكن بخيلا ولا مسرفا ، فان الإسراف والبخل يؤديان بك إلى أن تصير ملوما . أي : مذموما من الخلق والخالق محسورا ، أي : مغموما منقطعا عن الوصول إلى مبتغاك بسبب ضـــياع مالك ، واحتياجك إلى غيرك .

قال الآلوسى ما ملخصه : فالآية الكريمة تحض على التوسط ، وذلك هو الجود الممدوح ، فخير الأمور أوساطها . وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٥٥ .

قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ما عال من اقتصد» . وأخرجه البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة» . وفى رواية عن أنس مرفوعا : «التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين وكان يقال : حسن التدبير مع العفاف ، خير من الغنى مع الإسراف»[1]

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مرجع الأمور كلها إليه ، فهو المعطى وهو المانع ، فقال ـ تعالى ـ : إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا .

أى : إن ربك ـ أيها الإنسان العاقل يبسط الرزق ويضيقه ويقدره على من يشاء من خلقه . إذ كل شىء فى هذا الكون يسير على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وهو ـ سبحانه العليم ببواطن الناس وظواهرهم ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم ، ولا يعطى أو يمنع ، إلا لحكمة هو يعلمها .

قال ـ تعالى ـ : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حضت على إيتاء ذوى القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم . وعلى الاعتدال فى إنفاق المال ، ونهت عن الشح والتبذير ، وأسندت العطاء والمنع إلى الله ـ تعالى ـ الخبير البصير بالظواهر والبواطن .

ثم يسوق ـ سبحانه ـ جملة من النواهى التى يؤدى الوقوع فيها إلى فساد أحوال الأفراد والجماعات ، وإلى شيوع الفاحشة فى الأمم ، مما يؤدى إلى اضمحلالها وذهاب ريحها ، فقال تعالى ـ :

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ١٥ ص ٦٥ .

« ولا تَقتلُوا أولادَكُم خَشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزُقُهم وإياكُم ، إنَّ قتلَهم كانَ خِطئاً كبيراً (٣١) ولا تقربُوا الزِّنا ، إنَّه كانَ فاحِشةً وساءَ سبيلاً (٣٢) ولا تقتُلُوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ، ومَنْ قُتِلَ مظلُوماً فقَدْ جَعَلْنا لوَليِّهِ سُلْطاناً فلاَ يُسْرِفْ في القتلِ إنَّه كانَ منصُوراً (٣٣) ولا تقربُوا مالَ اليتيم إلا بالتي هِيَ أحْسَنُ حتَّى يَبْلُغَ أشُدَّهُ ، وأوْفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسئُولاً (٣٤) وأوْفُوا الكيلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقِسْطاسِ المسْتَقِيم ، ذلِكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً (٣٥) ولا تَقفُ ما ليسَ لكَ به علمٌ ، إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ ، كل أولئكَ كانَ عَنْهُ مسئُولاً (٣٦) ولا تمشِ في الأرضِ مرحاً ، إنكَ لن تخرِقَ الأرضَ ولَنْ تبلُغَ الجبالَ طولاً (٣٧) كلُّ ذلِكَ كان سَيِّئُهُ عندَ ربِّكَ مكرُوهاً (٣٨) ذلك مما أوْحَى إليكَ ربُّكَ من الحِكْمَةِ ، ولا تجْعَلْ معَ اللهِ إلهاً آخرَ فتُلْقَى في جَهَنَّمَ ملوماً مدحوراً (٣٩) » .

وقوله - سبحانه - : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق . . . » نهى عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده - سبحانه - ، يبسطها لمن يشاء ، ويضيقها على من يشاء .

والإملاق : الفقر . يقال : أملق الرجل إذا افتقر قال الشاعر :

وإني على الإملاق ياقوم ماجد ... أعد للأضياف الشواء المصهبا

قال الآلوسي : وظاهر اللفظ النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ، ذكورا كانوا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة .

لـكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن، فنهى فى الآية عن ذلك، فيكون المراد بالأولاد البنات، وبالقتل الوأد ... »(١)

أى : ولا تقتلوا — أيها الآباء — أولادكم خشية فقر متوقع، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم، وأرزاق غيركم من مخلوقاتنا التى لا تحصى.

قال - تعالى - : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . . . »

ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم، فمن الظلم البين الإعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم خوفا من الفقر المتوقع فى المستقبل، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لهم ولكم فى كل زمان ومكان.

وقد ورد النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة، وورد فى سورة الأنعام بصيغة أخرى، هى قوله - تعالى - « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ».

وليست أحداهما تكرارا للأخرى، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة.

فهنا يقول - سبحانه - « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، لأن النهى موجه بالأصالة إلى الموسرين، الذين يقتلون أولادهم لا من أجل فقر كائن فيهم، وإنما من أجل فقرهم يتوهمون حصوله فى المستقبل بسبب الأولاد، لذا قال - سبحانه - «نحن نرزقهم وإياكم »فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر، فى زعم آبائهم — لكى يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكى يضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء.

وقال - سبحانه - هناك « من إملاق » لأن النهى متوجه أصالة إلى الآباء والمعسرين : أى لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم - أيها الآباء -، وقد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٦٦

يجعل الله بعد عسر يسرا . ولذا قال - سبحانه - « نحن نرزقكم وإياهم » فجعل الرزق للآباء إبتداء ، لكى يطمئنهم - سبحانه - على أنه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم .

وفى كلتا الحالتين ، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله - تعالى - ، والإعتماد عليه .

وجملة « نحن نرزقهم وإياكم » تعليل للنهى عن قتل الأولاد ، بإبطال موجبه - فى زعمهم - وهو الفقر .

أى : نحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أنتم معهم ، وما دام الأمر كذلك ، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء : وهى قتل الأولاد ، لأن الأولاد ، قطعة من أبيهم ،والشأن - حتى فى الحيوان الأعجم - أنه يضحى من أجل أولاده ويحميهم ، ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

وقوله « إن قتلهم كان خطئا كبيرا » تعليل آخر للنهى عن قتل الأولاد جىء به على سبيل التأكيد .

والخِطْءُ : هو الإثم - وزنا ومعنى - ، مصدر خطىء - كأثم إثما من باب علم .

أى : أن قتل الأولاد كان عند الله - تعالى - إثما كبيراً فاحشا ، يؤدى إلى التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة :

والحق أن المجتمع الذى يبيح قتل الأولاد ، خوفا من الفقر أو العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية والتشاؤم والأوهام، لأن أفراده يظنون أن الله يخلق خلقا لا يدبر لهم رزقهم، ويعتدون على روح بريئة طاهرة ، تخوفا من فقر أو عار مترقب ، وذلك هو الضلال المبين .

ورحم الله الإمام الرازى فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه :

إن قتل الأولاد وإن كان لخوف الفقر، فهو سوء ظن بالله . وان كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم . فالأول ضد التعظيم لأمر الله - تعالى - والثانى ضد الشفقة على خلقه، وكلاهما مذموم ، (١)

ولقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - برعاية الأبناء، وحذر من الإعتداء عليهم فى أحاديث كثيرة، ومن ذلك ماجاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يا رسـول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك(٢)

وبعد أن نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المؤدى إلى افناء النسل ،أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية الى اختلاط الأنساب ، فقال - تعالى - : « ولا تقربوا الزنا ، أنه كان فاحشة وساء سبيلا »

والزنا : وطء المراة بدون عقد شرعى يجيز للرجل وطأها .

والفاحشة : ماعظم قبحه من الأقوال والأفعال . يقال فحش الشىء ، فحشاء كقبح قبحا - وزنا ومعنى - ، ويقال أفحش الرجل ، اذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء - ، وهو القبيح من القول أوالفعل . وأكثر ماتكون الفاحشة اطلاقا على الزنا .

وتعليق النهى بقربانها ، للمبالغة فى الزجر عنها ، لأن قربانها قد يؤدى الى الوقوع فيها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وهذا لون حكيم من ألوان اصلاح النفوس ، لأنه اذا حصل النهى عن القرب من الشىء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

فكأنه - سبحانه - يقول : كونوا - أيها المسلمون بعيدين عن كل المقدمات

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٦

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٩

التى تفضى إلى فاحشة الزنا كمخالطة النساء ، والخلوة بهن ، والنظر اليهن ... فإن ذلك يفتح الطريق الى الوقوع فيها .

قال بعض العلماء : وكثيراً مايتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء ، وضابطه بالإستقراء :

أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس اليه ، وتدفع اليه الأهواء ، جاء النهى فيه عن القربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، ومن ذلك قوله — تعالى — : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ... » « ولا تقربوا الزنا .... » « ولا تقربوهن حتى يطهرن .. »

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس اليها ، ولا إقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها ، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .... » وقوله ـ تعالى ـ « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ... »

فهذه وإن كانت فواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية ، يميل اليها الإنسان بشهوته . بل هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك، يجد الإنسان فى نفسه مرارة إرتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها ، أو فى حكم الكاره ... » (١)

وقوله : « إنه كان فاحشة وساء سبيلا » تعليل للنهى عن الإقتراب منه أى : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلا عن الوقوع فيه ذاته ، لأنه كان ـ وما زال ـ فى شرع الله ، وفى نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح وبئس الطريق طريقة ، فإنها طريق تؤدى إلى غضب الله ـ تعالى ـ وسخطه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٤٤١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت.

ومما لاشك فيـــه أن فاحشة الزنا من أقبح الفواحش التي تؤدى إلى شيوع الفسـاد والأمراض الخبيثة فى الأفراد والمجتمعات ، وما وجـدت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسراً .

ولقد تحدث الإمام الرازى عن تلك المفاسد التى تترتب على الزنا فقال ما ملخصه :

الزنا أشتمل على أنواع من المفاسد : أولها : اختلاط الأنساب واشتباهها ، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذى أتت به الزانية ، أهو منه أو من غيره . . .

وثانيها : أنه اذا لم يوجد سبب شرعى لأجله يكون هـذا الرجل لتلك المرأة ، لم يبق فى حصول ذلك الإختصاص الا التواثب والتقاتل . . .

وثالثها : أن المرأة اذا باشرت الزنا ، استقذرها كل طبع سليم ، وحينئذ لاتحصل الألفة والمحبة ، ولا يتم السكن والإزدواج . . .

ورابعها : أنه اذا فتح باب الزنا ، فحينئذ لايبقى لرجل اختصاص بامرأة وحينئذ لايبقى بين نوع الإنسان ، وبين سائر البهائم فرق فى هذا الباب .

وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل واعداد مهماته . . . وهـذه المهمات لاتتم الا اذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد،منقطعة الطمع عن سائر الرجال وذلك لايحصل الا بتحريم الزنا . . . فثبت بما ذكرنا أن العقول السـليمة تقضى على الزنا بالقبح (١)

ولقد سد الإسـلام جميع المنافذ التى تؤدى الى ارتكاب هـذه الفاحشة ، وسلك لذلك وسائل من أهمها :

١ ـ تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، ومنع الإختلاط بين الرجال والنساء

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٨

الا فى حدود الضرورة الشرعية ، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى، مارواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذى محرم »

وروى الشيخان ـ أيضا ـ عن عقبة بن عامر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ـ بفتح الحاء وسكون الميم ـ وهو قريب الزوج كأخيه وابن عمه ـ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الحمو الموت[1] . أى: دخوله قد يؤدى إلى الموت .

٢ - تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية . ووجوب غض البصر .

قال ـ تعالى ـ « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . . . »

وقال ـ سبحانه ـ « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . . . . »[2]

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام . . . والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه »[3] .

٣ — وجوب التستر والاحتشام للمرأة ، فإن التبرج والسفور يغرى الرجال بالنساء ، ويحرك الغريزة الجنسية بينهما .

قال ـ تعالى ـ : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين

---

(١) رياض الصالحين ص ٦٢٤ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .
(٢) سورة النور الآيتان ٣٠ ، ٣١
(٣) رياض الصالحين ص ٦٢٢ الإمام النووى .

عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . »[١]

٤ - الحض على الزواج ، وتيسير وسائله ، والبعد عن التغالى فى نفقاته، وتخفيف مؤنه وتكاليفه . . . . فإن الزواج من شأنه أن يحصن الإنسان ، ويجعله يقضى شهوته فى الحلال . . .

فإذا لم يستطع الشاب الزواج ، فعليه بالصوم فإنه له وقاية - كما جاء فى الحديث الشريف - .

٥ - إقامة حدود الله بحزم وشدة على الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، كما قال - تعالى - . الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »[٢] .

وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى ، أما بالنسبة للمحصن وهو المتزوج أو الذى سبق له الزواج ، فعقوبته الرجم ذكرا كان أو أنثى ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

ففى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى فى زان لم يتزوج وزانية متزوجة ، بقوله لوالد الرجل : « على ابنك مائة جلدة وتغريب عام » ثم قال - صلى الله عليه وسلم - لأحد أصحابه واسمه أنيس : أغديا أنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها .

ومما لا شك فيه أنه لو تم تنفيذ حدود الله - تعالى - على الزناة، لمحقت هذه الفاحشة محقا ، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه - عز وجل - لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة ، ومن فضيحته على رءوس الاشهاد .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩

(٢) سورة النور الآية ٢

هذه بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة ، ولو اتبعها المسلمون، لطهرت أمتهم من رجسها ، ولحفظت فى دينها ودنياها .

ثم نهى - سبحانه - عن قتل النفس المعصومة الدم ، بعد نهيه عن قتل الاولاد ، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا فقال - تعالى - : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق .

أى : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها ، إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعا ، كردة ، أو قصاص ، أو زنا يوجب الرجم .

قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى ، كما ثبت فى الصحيحين - عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

وفى السنن . لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم »(١) .

وقوله - « إلا بالحق » متعلق بلا تقتلوا ، والباء للسببية ، والإستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى : لا تقتلوها فى حال من الأحوال ، إلا فى حال إرتكابها لما يوجب قتلها .

وذلك ؛ لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله - تعالى - فلا يحل لاحد أن يهدمه إلا بحق .

وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة ، فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا . قال - تعالى - : من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٠

فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ... »[١]

وقوله ـ سبحانه ـ ، « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه . من يلى أمر المقتول ، كأبيه وابنه وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق فى المطالبة بدمه . فإن لم يكن للمقتول ولى ، فالحاكم وليه .

والمراد بالسلطان : القوة التى منحتها شريعة الله ـ تعالى ـ لولى المقتول على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولى المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينازعه فى هذا الحق ، أو أن يجبره على التنازل عنه .

والمعنى : ومن قتل مظلوما ، أى : بدون سبب يوجب قتله ، فإن دمه لم يذهب هدرا ، فقد شرعنا لوليه سلطانا على القاتل ، لأنه ـ أى الولى ـ إن شاء طالب بالقصاص منه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . وبذلك يصير الولى هو صاحب الكلمة الأولى فى التصرف فى القاتل ، حتى لكأنه مملوك له .

وما دامت شريعة الله ـ تعالى ـ قد أعطت الولى هذا السلطان على القاتل ، فعليه أن لا يسرف فى القتل ، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله ـ تعالى ـ .

ومن مظاهر هذا التجاوز : أن يقتل اثنين ـ مثلا ـ فى مقابل قتيل واحد ، أو أن يقتل غير القاتل ، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله .

قال الآلوسى ما ملخصه : كان من عادتهم فى الجاهلية ، أنهم إذا قتل منهم واحد ، قتلوا قاتله ، وقتلوا معه غيره . . . .

(١) سورة المائدة الآية ٣٢

وأخرج البيهقى فى سننه عن زيد بن أسلم أنه قال : إن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفاً شريفاً ، لم يقتلوه به ، وقتلوا شريفاً من قومه ، فنهوا عن ذلك ، كما نهوا عن المثلة بالقاتل .

وقرأ حمــــزة والكسائى : فلا تسرف بالخطاب للولى على سبيل الالتفات »(1) .

وقوله : « إنه كان منصورا » تذييل المقصود به تعليل النهى عن الإسراف فى القتل . والضمير يعود إلى الولى - أيضا - .

أى : فلا يسرف هذا الولى فى القتل ، لأن الله - تعالى - قد نصره عن طريق ماشرعه له من سلطان عظيم ومن مظاهره : المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو بأخذ الدية ، ومن مظاهره - أيضا - وقوف الحاكم وغيره إلى إلى جانبه حتى يستوفى حقه من القاتل ، دون أن ينازعه منازع فى هذا الحق .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « إنه » يعود إلى المقتول ظلما ، على معنى : أن الله - تعالى - قد نصره فى الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا يضيع دمه ، ونصره فى الآخرة بالثواب الذى يستحقه ، ومادام الأمر كذلك فعلى وليه أن لا يسرف فى القتل .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب . لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأشبه ذلك بالصواب عندى ، قول من قال : عنى بها - أى بالهاء فى إنه - الولى ، وعليه عادت ، لأنه هو المظلوم ووليه المقتول ، وهى إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول ، وهو المنصور - أيضا - لأن الله - جل ثناؤه - قضى فى كتابه المنزل ، أن سلطه على قاتل وليه ، وحكمه فيه ، بأن جعل إليه قتله إن شاء ، واستبقاءه على الدية

(1) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٧٠

إن أحب ، والعفو عنه إن رأى . وكفى بذلك نصرة له من الله - تعالى - ، فلذلك هو المعنى بالها. التي فى قوله « إنه كان منصورا »(١) .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة التى هى أول آية نزلت فى شأن القتل كما قال الضحاك (٢) - : يراها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكيما .

فهى أولا : تنهى عن القتل ، لأنه من أكبر الكبائر التى تؤدى إلى غضب الله - تعالى - وسخطه ، قال - تعالى - : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما »(٣) .

وجاء النهى عنه فى بعض الآيات بعد النهى عن الإشراك بالله - عز وجل - . قال - سبحانه - : « والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ... »(٤)

كما جاء النهى عنه فى كثير من الأحاديث النبوية ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : أول مايقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » .

وفى حديث آخر يقول - صلى الله عليه وسلم - الآدمى بنيان الرب ، ملعون من هدم بنيان الرب » .

وفى حديث ثالث : لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم ، لأكبهم الله فى النار » .

وهذا النهى الشديد عن قتل النفس من أسبابه : أنه يؤدى إلى شيوع الغل والبغض والتقاتل .... بين الأفراد والجماعات .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٨ ص ٦٠ : طبعة دار المعرفة - بيروت

(٢) تفسير الآلوسى ح ١٥ ص ٧٠

(٣) سورة النساء الآية ٩٣

(٤) سورة الفرقان الآية ٦٨

إذ النفس البشرية فى كل زمان ومكان ، يؤلمها ، ويثير غضبها وانتقامها ، أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض . . .

وهى ثانيا : تسوق لولى المقتول من التوجيهات الحكيمة ، مايهدىء نفسه، ويقلل من غضبه ، ويطفىء من نار ثورته المشتعلة . .

وقد أجاد صاحب الظلال - رحمه الله - فى توضيح هذا المعنى فقال :

« وفى تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وتجنيد الحاكم لنصرته ، تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذى تستشعره نفس الولى . الغليان الذى قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا ، فى حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل. وأن الحاكم يجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ، ونفسه تسكن ، ويقف عند حد القصاص العادل الهادىء .

والإنسان إنسان ، فلا يطالب بغير ما ركب فى فطرته من الرغبة العميقة فى القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطره ويلبيها فى الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ، ويحبب فيه ، ويأجر عليه ، ولكن بعد أن يعطى الحق . فلولى الدم أن يقتص أو يصفح .

وشعور ولى الدم بأنه قادر على كليهما ، قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ، ويدفع به إلى الغلو والجموح »(١) .

هذا ، والذى نعتقده وندين الله - تعالى - عليه ، أنه لا علاج لجريمة القتل - وغيرها - إلا بتطبيق شريعة الله - تعالى - التى جمعت بين الرحمة والعدل .

---

(١) فى ظلال القرآن حـ ١٥ صـ ٢٢٣٥

وبالرحمة والعدل : تتلاقى القلوب بعد التفرق ، وتلتئم بعد التصدع ، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن إتلاف النفوس عن طريق القتل والزنا ، أتبع ذلك بالنهى عن إتلاف الأموال التى هى قوام الحياة ، وبدأ - سبحانه - بالنهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ثم ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان عند التعامل ، فقال - تعالى - :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ٣٤ وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ٣٥ .

واليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمه .

والخطاب فى قوله : «ولا تقربوا . . . » لأولياء اليتيم ، والأوصياء على ماله .

والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى القوة . يقال : شد النهار إذا ارتفع واكتمل ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو هو جمع لا واحد له من لفظه ، أو جمع شدة كأنعم ونعمة .

أى : ولا تقربوا - أيها الأولياء على اليتيم - ماله الذى منحه الله إياه عن طريق الميراث أو غيره ، إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرق ، والتى من شأنها أن تنفعه ، كالمحافظة عليه ، واستثماره له ، وانفاقه فى الوجوه المشروعة .

واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو فى ماله ، لا يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - فهو تصرف محظور ومنهى عنه ، وسيحاسبكم الله - تعالى - عليه .

وتعليق النهى بالقربان ، للمبالغة فى الزجر عن التصرف فى مال اليتيم ، إلا بالطريقة التى أحسن .

وقوله : « حتى يبلغ أشده » ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى : فإذا بلغ أشده فاقربوه ، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولى لمال اليتيم بعد بلوغه وإنما هو غاية لما يفهم من النهى ، فيكون المعنى لا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التى هى أحسن ، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده ، أى : حتى يصير بالغا عاقلا رشيدا ، فإذا ما صار كذلك ، فسلموا إليه ماله بأمانته واستعفاف عن التطلع إلى شىء منه .

هذا ، وقد أمرت شريعة الإسلام ، بحسن رعاية اليتيم ، وبالمحافظة على حقوقه ، ونهت عن الإساءة إليه ، بأى لون من ألوان الإساءة :

قال ـ تعالى ـ : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ...[1] » .

وقال ـ سبحانه ـ : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا »[2] .

وقال ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه ـ « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى[3] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يارسول الله وماهن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

ومن الحكم التى من أجلها أمر الإسلام بالعطف على اليتيم ، ونهى عن ظلمه ، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى ، والعائل والنصير منذ صغره ...

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٠

(٢) سورة النساء الآية ١٠

(٣) من كتاب رياض الصالحين ، ص ١٣٧ للإمام النووى

فإذا نشأ فى بيئة ترعاه وتكرمه ... شب محبا لمن حوله ، وللمجتمع الذى يعيش فيه .

وإذا نشأ فى بيئة تقهره وتذله وتظلمه ... نظر إلى من حوله ، وإلى المجتمع الذى يعيش فيه ، نظرة العدو إلى عدوه ...

وكأنه يقول لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى فى صغرى وفى حالة ضعفى ، فلماذا أحسن إليهم فى حال كبرى وقوتى !!

وإذا كانوا قد حرمونى حقى الذى منحه الله لى فلماذا أعطيهم شيئا من خيرى وبرى !!

هذه بعض الأسباب التى من أجلها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه، وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم .

وبعد أن نهى ـ سبحانه ـ عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، أمر بالوفاء بالعهود فقال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كالوصية واليمين . وعهد الله : أوامره ونواهيه وعهد الناس : ما يتعاهدون عليه من معاملات وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم .

أى : وأوفوا بالعهود التى بينكم وبين الله ـ تعالى ـ ، والتى بينكم وبين الناس ، بأن تؤدوها كاملة غير منقوصة ، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية . وقوله « إن العهد كان مسئولا » تعليل لوجوب الوفاء بالعهد .

أى : كونوا أوفياء بعهودكم لأن صاحب العهد كان مسئولا عنه ، أمام الله ـ تعالى ـ وأمام الناس . فالكلام على حذف مضاف كما فى قوله ـ سبحانه ـ « واسأل القرية » .

وقال ـ سبحانه ـ « وأوفوا بالعهد إن العهد ... » بالإظهار دون الإضمار للإشعار بكمال العناية بشأن الوفاء بالعهود .

ويجوز أن يكون المعنى : وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا أى : كان مطلوبا الوفاء به وقد مدح الله ـ تعالى ـ الذين يوفون بعهودهم فى آيات كثيرة، منها قوله ـ تعالى ـ : « إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق »(١) .

وقوله ـ تعالى ـ : والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »(٢) .

وبعد أن أمر ـ سبحانه ـ بالوفاء بصفة عامة ، أتبع ذلك بالوفاء فى شئون البيع والشراء ، فقال ـ تعالى ـ : « وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

والقسطاس : الميزان الذى يوزن به فى حالتى البيع والشراء .

قال صاحب الكشاف : قرىء « بالقسطاس » . بكسر القاف وضمها ـ ... قيل كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها »(٣) .

وقال الآلوسى ما ملخصه : وهذا اللفظ رومى معرب .. وقيل عربى ... وعلى القول بأنه رومى معرب ـ وهو الصحيح ـ لا يقدح استعماله فى القرآن فى عربيته المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » لأنه بعد التعريب والسماع فى فصيح الكلام ، يصير عربيا ، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه ... »(٤)

وقوله : « تأويلا » من الأول ـ بفتح الهمزه وسكون الواو ـ بمعنى الرجوع . يقال : آل هذا الأمر كذا ، إذا رجع إليه .

---

(١) سوره الرعد الآية ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٨ .
(٤) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٧٢ .

والمعنى : وأتموا أيها المؤمنون الكيل إذا كلتم لغيركم عند بيعكم لهم ماتريدون بيعه ، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ماتريدون وزنه لهم .

وقيد - سبحانه - الأمر بوجوب إتمام الكيل والميزان فى حالة البيع ، لأنها الحالة التى يكون فيها التطفيف فى العادة . إذ أن البائع هو الذى غالبا مايطفف للمشترى فى المكيال والميزان ولا يعطيه حقه كاملا .

قال - تعالى - : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم او وزنوهم يخسرون » .

واسم الإشارة فى قوله « ذلك خير وأحسن تأويلا » يعود إلى تمام الكيل والميزان بالقسطاس المستقيم .

أى : ذلك الذى أمرناكم به . من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل ، خير لكم فى الدنيا ، لأنه يرغب الناس فى التعامل معكم ، أما فى الآخرة فهو أحسن عاقبة ومآلا ، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله — عز وجل — .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات السامية السديدة ، بالنهى عن تتبع مالا علم للإنسان به ، وعن الفخر والتكبر والخيلاء ... فقال - تعالى - :

ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ٣٦ ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ٣٧ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها ٣٨ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر ، فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ٣٩ .

قال القرطبى - رحمه الله - ماملخصه : قوله - تعالى - : « ولا تقف ماليس لك به علم » أى : ولا تتبع مالا تعلم ولا يعنيك - من قول أو فعل - قال قتادة : لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وانت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم ...

ثم قال : وأصل القفو البهت ، والقذف بالباطل ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ، ولا ننتفى من أبينا » أى : لا نسب أمنا .

ويقال : قفوته أقفوه ... إذا اتبعت أثره. وقافية كل شىء آخره ، ومنه اسم النبى - صلى الله عليه وسلم - : المقفى ، لأنه آخر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، ومنه القائف ، وهو الذى يتبع الأثر ... »[1]

وقال صاحب الكشاف - رحمه الله - : قوله « ولا تقف ما ليس لك به علم » : يعنى ، ولا تكن فى إتباعك مالا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل مالا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد الأعمى دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده ... »[2]

وقوله : « إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به ، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق ، أو أن يحكم حكما بلا بينة أو دليل .

أى : إن السمع الذى تسمع به - أيها المكلف - ، والبصر الذى تبصر به ، والفؤاد - أى القلب - الذى تحيا به ، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة ، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ : لماذا سمعت مالا يحل لك سماعه ، ونظرت إلى مالا يجوز لك النظر إليه ، وسعيت إلى مالا يصح لك أن تسعى إليه !!

وعلى هذا التفسير يكون السؤال فى قوله - تعالى - : « كان عنه مسئولا » للانسان الذى تتبع ما ليس له به علم من قول أوفعل .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٥٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٤٩ .

ومن الآيات التى تشهد لهذا التفسير قوله - تعالى - : « فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون »[1] .

ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء ، لتنطق بما اجترحه صاحبها ، ولتكون شاهدة عليه ، فيكون المعنى :

إن السمع والبصر والفؤاد ، كل واحد من أولئك الأعضاء ، كان مسئولا عن فعله ، بأن يقال له : هل استعملك صاحبك فيما خلقت من أجله أولا ؟

ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها ، كما قال - تعالى - : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »[2]

وكما قال - سبحانه - : « ويوم يحشر أعداء الله على النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون »[3] .

واسم الإشارة « أولئك » على التفسيرين يعود إلى السمع والبصر والفؤاد ، إما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء ، كما فى قول الشاعر :

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الأيام

وإما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء ، لأنها جزء منهم ، وشاهدة عليهم .

وعلى كلا التفسيرين أيضا ، يتمثل التحذير الشديد للانسان عن أن يتبع ماليس له به علم .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

(٣) سورة فصلت الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

قال الجمل : وقوله ـ تعالى ـ «كل أولئك» مبتدأ، خبره جملة «كان عنه مسئولا»، والضمير فى «كان» وفى «عنه» وفى «مسئولا» يعود على كل. أى: كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه، يعنى، عما فعل به صاحبه: ويجوز أن يكون الضمير فى «عنه» لصاحب السمع والبصر والفؤاد...»[١]

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن اتباع مالا علم للانسان به. قوله ـ تعالى ـ: «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون»[٢].

وقوله ـ سبحانه ـ «يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون»[٣].

قال الإمام ابن كثير : ومضمون ما ذكروه ـ فى معنى قوله ـ تعالى ـ : ولا تقف ما ليس لك به علم... ـ أن الله ـ تعالى ـ نهى عن القول بلا علم، كما قال ـ سبحانه ـ : اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم..» وفى الحديث : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث...» وفى سنن أبى داود : «بئس مطية الرجل زعموا» وفى الحديث الآخر : «إن أفرى الفرى ـ أى أكذب الكذب ـ أن يرى الرجل عينيه مالم تريا»[٤].

وقال بعض العلماء : وهذه الكلمات القليلة ـ التى اشتملت عليها الآية ـ تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثا جدا، ويضيف إليه استقامة القلب، ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة!

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٥.
(٢) سورة الأعراف الآية ٣٣ (٣) سورة البقرة الآية ١٦٨، ١٦٩.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٢.

فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ، هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ...

فلا يقول اللسان كلمة، ولا ينقل رواية، ولا يروى حادثة ، ولا يحكم العقل حكما، ولا يبرم الإنسان أمرا . إلا وقد تثبت من كل جزئية ، وعن كل ملابسة ، ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة فى صحتها ... »[1] .

ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان مالا علم له به ، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب فى النفس فيقول : ولا تمش فى الأرض مرحا ... » .

والمرح فى الأصل : شدة الفرح ، والتوسع فيه ، مع الخيلاء والتعالى على الناس ، يقال : مرح - بزنة فرح - يمرح مرحا ، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين . وهو مصدر وقع موقع الحال .

أى : ولا تمش - أيها الإنسان - فى الأرض مشية الفخور المتكبر المختال ، بل كن متواضعا متأدبا بأدب الإسلام فى سلوكك .

وتقييد النهى بقوله « فى الأرض » للتذكير بالمبدأ والمعاد ، المانعين من الكبر والخيلاء ، إذ من الأرض خلق وإليها يعود ، ومن كان كذلك كان جديرا به أن يتواضع لا أن يتكبر .

قال - تعالى - : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى »[2] .

وقوله - سبحانه - : « إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا » تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية والتهكم من المتفاخر المغرور .

أى : إنك - أيها الماشى فى الأرض مرحا - لن تخرق الأرض بوطئك

---

(١) من تفسير « فى ظلال القرآن » ج ١٥ ص ٢٢٢٧ .

(٢) سورة طه الآية ٥٥ .

عليها ، أو يمشيك فوقها ، ولن تبلغ - مهما ارتفعت قامتك - الجبال فى الطول والعلو . وما دام شأنك كذلك ، فكن متواضعا ، فمن تواضع لله - تعالى - رفعه .

وقوله « طولا » تمييز محول عن الفاعل . أى : لن يبلغ طولك الجبال ، وشبيه بهذه الآية فى النهى عن التعالى والتطاول ، قوله - تعالى - : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لايحب كل مختال فخور »[1] .

وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالتواضع ، ونهى عن التكبر والغرور ، وبين سوء عاقبة ذلك فى أحاديث كثيرة ، منها مارواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : إن الله-تعالى- أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد »[2] .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-قال: « لاينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا »[3] .

وروى الترمذى عن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لايزال الرجل يذهب بنفسه - أى يرتفع ويتكبر - حتى يكتب فى الجبارين - فيصيبه ما أصابهم »[4] .

ورحم الله القائل :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هموا منك أرفع
وإن كنت فى عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هموا منك أمنع

---

(١) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٢) ، (٣) ، (٤) من كتاب رياض الصالحين ص ٢٨٥ للامام النووى ،

ثم ختم - سبحانه - تلك التكاليف ، التى يغلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله : «كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها» .

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى ماتقدم ذكره من التكاليف والأوامر والنواهي ، التى لا يتطرق إليها النسخ ، والتى تبلغ خمسة وعشرين تكليفا ، تبدأ بقوله - تعالى- لاتجعل مع الله إلها آخر ، ثم يأتى بعد ذلك النهى عن عقوق الوالدين ، والأمر بصلة الأرحام ، وبالعطف على المسكين وابن السبيل ، ثم النهى عن البخل ، والإسراف ، وقتل الأولاد ، والاقتراب من الزنا ، وقتل النفس إلا بالحق ، والاعتداء على مال اليتيم . . إلخ .

والضمير فى «سيئه» يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال ، كالشرك ، وعقوق الوالدين ، والزنا .

أى : كل ذلك الذى بيناه لك فيما سبق ، كان الفعل السيء منه ، عند ربك مكروها ، أى : مبغوضا عنده - سبحانه - وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد ، وإعطاء ذى القربى حقه ، فهو محمود عند ربك - عز وجل .

قال الآلوسى : ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر - كالشرك والزنا . . . - للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده - تعالى - كافية فى وجوب الكف عن ذلك .

وتوجيه الإشارة إلى الكل ، ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء ، لما قيل : من أن البعض المذكور جملته ، بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته ، وفيه إشعار بكون ماعداه مرضيا عنده - سبحانه - .

وإنما لم يصرح بذلك ، إيذانا بالغنى عنه ، أو اهتماما بشأن التنفير من النواهي . . . »[1] .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : «كل ذلك كان سيئة» بالتاء والتنوين .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٧٦ .

وعلى هذه القراءة يكون اسم الإشارة ، يعود إلى المنهيات السابقة فقط ، ويكون المعنى : كل ذلك الذى نهيناك عنه فى الآيات السابقة ، من الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، واتباع ما ليس لك به علم . . . كان اقترافه سيئة من السيئات المبغوضة عند ربك ، المحرمة فى شرعه ، المعاقب مرتكبها .

ثم ختم - سبحانه - تلك الأحكام المحكمة ، والتكاليف السامية ، بقوله : « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » .

أى : ذلك الذى أمرناك به ، ونهيناك عنه - أيها الرسول الكريم - بعض ما أوحاه الله - تعالى - عليك « من الحكمة » التى هى علم الشرائع ومعرفة الحق ، والعمل به ، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم ، مع الله - تعالى - إلها آخر - أيها المخاطب - فتلقى وتطرح فى جهنم ، ملوما من نفسك ومن غيرك ، « مدحورا أى : » مبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : ولقد جعل الله - تعالى - فاتحتها - أى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهى - وخاتمتها ، النهى عن الشرك ، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء ، وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم »[١] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التى اشتملت على بضع وعشرين تكليفا ، والتى ابتدأت بقوله - تعالى - لا تجعل مع الله إلها آخر . . . وانتهت بقوله - سبحانه - « ولا تجعل مع الله إلها آخر . . . قد ربطت قواعد السلوك والآداب : والتكاليف الفردية والاجتماعية ، بإخلاص العبادة لله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٠ .

لأن هذا الإخلاص لله - تعالى - فى العقيدة والعبادة والقول والعمل . . . هو رأس كل حكمة وملاكها . كما قال صاحب الكشاف - رحمه الله - .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ذكر من الأوامر والنواهى فى الآيات السابقة ، التى بدأها وختمها بالنهى عن الإشراك بالله - تعالى - أتبع ذلك بإقامة الأدلة على استحالة أن يكون له شريك أو ولد ، بل كل من فى السموات ومن الأرض ، خاضع لسلطانه ، وما من شىء إلا ويسبح بحمده ، فقال - تعالى - :

« أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنينَ ، واتخذَ من الملائكةِ إناثا ، إنكم لتقولونَ قولاً عظيماً (٤٠) ولقد صرَّفنا فى هذا القرآنِ ليذَّكَّروا ، وما يزيدُهُم إلا نفوراً (٤١) قلْ لو كانَ معهُ آلهةٌ كما يقولونَ إذاً لابتغَوْا إلى ذِى العرشِ سبيلاً (٤٢) سبحانَه وتعالَى عمَّا يقولونَ علوًّا كبيراً (٤٣) تُسَبِّح له السمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَنْ فيهِنَّ ، وإنْ من شىءٍ إلا يُسَبِّحُ بحَمدِهِ ، ولكِنْ لا تَفْقَهونَ تسبيحَهُم ، إنهُ كانَ حليماً غفوراً (٤٤) » .

والخطاب فى قوله - تعالى - : « أفأصفاكم . . . » للكافرين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله .

والإصفاء بالشىء : جعله خالصا . يقال : أصفى فلان فلانا بالشىء ، إذا آثره به . ويقال للأشياء التى يختص السلطان بها نفسه : الصوافى . وفعله صفا يصفو وتضمن هنا معنى التخصيص .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم .

والمعنى - كما يقول صاحب الكشاف - أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد ، وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ

أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لاترضونهن لأنفسكم ، بل تئدوهن وتقتلونهن !! فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات »[١] .

والمقصود من الجملة الكريمة نفي مازعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه، أي : لم يخصكم ربكم بالبنين ؛ ولم يتخذ من الملائكة إناثا، لأنه ـ سبحانه ـ تنزه عن الشريك والولد والوالد والشبيه .

قال ـ تعالى ـ : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار »[٢] .

وقال ـ تعالى ـ : « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى »[٣] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « إنكم لتقولون قولا عظيما » تسفيه لأقوالهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ، وعقولهم السقيمة .

أي : إنكم بنسبتكم البنات إلى الله ـ تعالى ـ ، لتقولون قولا عظيما في قبحه وشناعته ، وفي استهجان العقول السليمة له ، وفيما يترتب عليه من عقوبات أليمة من الله ـ تعالى ـ لكم .

قال ـ تعالى ـ : وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا[٤] ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) سورة الزمر الآية ٤ .

(٣) سورة النجم الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٤) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥ .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن الذى أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - قد أشتمل على ألوان متعددة من الهدايات و الآداب والأحكام ، فقال - تعالى - : ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ، ومايزيدهم إلا نفورا » .

وقوله - تعالى - « صرفنا » من التصريف ، وهو فى الأصل صرف الشىء من حالة إلى أخرى ، ومن جهة إلى أخرى .

والمراد به هنا : بينا ، وكررنا ، ومفعوله محذوف للعلم به .

والمعنى : ولقد بينا وكررنا فى هذا القرآن أنواعا من الوعد والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، والمواعظ والأخبار ، والآداب والتشريعات ، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويعتبروا ، ويوقنوا بأنه من عند الله - تعالى - فيهديهم ذلك إلى اتباع الحق ، والسير فى الطريق القويم .

وقوله - تعالى - « وما يزيدهم إلا نفورا » تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم ، وإيثارهم الغى على الرشد .

والنفور : التباعد والإعراض عن الشىء . يقال : نفرت الدابة تنفر - بكسر الفاء وضمها - نفوراً ، إذا جزعت وتباعدت وشردت .

أى : وما يزيدهم هذا البيان والتكرار الذى اشتمل عليه القرآن الكريم ، إلا تباعداً عن الحق ، وإعراضا عنه ، وعكوفا على باطلهم ، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول - صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله .

وكان بعض الصالحين إذا قرأ هـذه الآية قال : زادنى لك خضوعا ، ما زاد أعداءك نفورا » .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخهم على شركهم ، وأن يسوق لهم الدليل الواضح على فساد عقولهم ، فقال - تعالى - : قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » .

وقد قرأ جمهور القراء «كما تقولون» ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم «كما يقولون» .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية إتجاهان ، أما الإتجاه الأول فيرى أصحابه أن المعنى :

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - إذاً لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عزوجل - طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكى ينازعوه فى ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما هى عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »[1] .

وقال - سبحانه - : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »[2] .

وهذا الإتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه : قوله «إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا» جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو . أى : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ... »[3] .

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين . لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - ، إذا لابتغوا - أى الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ، ويعترفوا بفضله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : أولئك الذين

(١) سورة المؤمنون الآيه ٩١
(٢) سورة الأنبياء الآيه ٢٢
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥

يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محظورا »(١) .

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه فى تفسيره للآيه فقال: يقول ـ تعالى ـ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة تعبد . . . لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ... »(٢)

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأى الأول أظهر ، لأن فى الآيه فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله ـ تعالى ـ ، وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تتقرب إليه ـ سبحانه ـ ، بل الذى يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأى يناسبه ـ أيضا ـ قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » .

أى : تنزه الله ـ تعالى ـ عما يقوله المشركون فى شأنه وتباعد ، وعلا علوا كبيرا ، فإنه ـ جل شأنه ـ لا ولد له ، فلا شريك له ...

قال ـ تعالى ـ : قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ،

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : « إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنها دون عرشه ـ تعالى ـ وتحته ، وليست معه . . . ،

ثم بين ـ سبحانه ـ أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال ـ تعالى ـ : تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . . »

---

(١) سورة الإسراء الآيه ٥٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٦

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء ، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل مالا يليق به ـ سبحانه ـ.

أي تنزه الله ـ تعالى ـ وتمجده ، السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شيء من مخلوقاته التى لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه ـ تعالى ـ ، «ولكن» أنتم يا بنى آدم «لا تفقهون تسبيحهم» لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ، وفوق مستوى فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق ـ سبحانه ـ إذ يقول : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

والمتدبر فى هذه الآية الكريمه ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبه من الخالق ـ عز وجل ـ ، لأنها تصرح تصريحا بليغا بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ... بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده ـ تعالى ـ .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعه الله ، وإخلاص العبادة له ، ومداومة ذكره ... حتى لا يكون وهو الذى كرمه ربه وفضله أقل من غيره طاعة لله ـ تعالى ـ .

وقوله « إنه كان حليما غفورا » تذييل قصد به بيان فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده « مع تقصيرهم فى تسبيحه وذكره .

أي : « إنه كان حليما » لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، «غفورا» لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه المستقيم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال .

قال بعض العلماء تسبيح هذه الكائنات لله ـ تعالى ـ هو دلالته بإمكانها وحدوثها ، وتغير شئونها ، وبديع صنعها ، على وجود مبدعها ، ووحدته ، وقدرته ؛ وتنزها عن لوازم الإمكان والحدوث ، كما يدل الأثر على المؤثر .

فهى دلالة بلسان الحال، لا يفقهها إلا ذووا البصائر. أما الكافرون فلا يفقهون هذا التسبيح، لفرط جهلهم، وانطماس بصيرتهم ... »(١)

ومنهم من يرى أن تسبيحها بلسان المقال، أى أن التسبيح بمعناه الحقيقى، فالكل يسبح بحمد الله؛ ولكن بلغته الخاصة التى لا يفهمها الناس.

قال الإمام ابن كثير ماملخصة: وقوله: « وإن من شىء إلا يسبح بحمده» أى: وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أى: لا تفقهون تسبيحهم - أيها الناس - لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام فى الحيوانات والنبات والجماد.

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره، عن إبن مسعود أنه قال: « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »

وفى حديث أبى ذر: أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ فى يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل. وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - وهو حديث مشهور فى المسانيد ....

ثم قال ويشهد لهذا القول آية السجدة فى أول سورة الحج - وهى قوله - تعالى - : ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب ...... »(٢)

وقال القرطبى: قوله - تعالى - : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند اليه فعل

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن ج ١ ص ٤٥٧ لفضيلة الشيخ حنين مخلوف

(٢) الآية ١٨ من سورة الحج وراجع تفسير إبن كثير ج ٥ ص ٧٦ طبعة دار الشعب.

العاقل وهو التسبيح . وقوله « ومن فيهن » يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عمم بعد ذلك الأشياء كلها فى قوله : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » .

وإختلف فى هذا العموم هل هو مخصص أولا . فقالت فرقة : ليس مخصوصا ، والمراد به تسبيح الدلالة ، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله ـ عز وجل ـ خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شىء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر : ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة والدلالة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقة . . .

ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله ـ تعالى ـ : ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير . . . .

وقوله ـ تعالى ـ . وأذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » . . .

ثم قال : فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الداله على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال ، بخلق الحياه والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على مادل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء فالقول به أولى (١)

والذى تطمئن اليه النفس أن التسبيح حقيقى وبلسان المقال ، لأن هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤيد ذلك .

وبعد أن أقام ـ سبحانه ـ الأدلة على وحدانيته ، وأثبت أن كل شىء يسبح بحمده ، أتبع ذلك ببيان أحوال المشركين عند سماعهم للقرآن الكريم .

(١) راجع تفسير القرطبى حـ ١٠ ص ٢٦٦

وبيان ما جعله الله - تعالى - على حواسهم بسبب جحودهم وعنادهم ، فقال - تعالى - :

« وإذَا قرأتَ القرآنَ جَعَلْنَا بينكَ وبينَ الذينَ لا يُؤمنُونَ بالآخرةِ حجاباً مَسْتُورًا (٤٥) وجعلنَا عَلَى قلوبِهم أكِنَّةً أن يفقهُوهُ وفى آذانِهم وقراً ، وإذَا ذكرتَ ربَّكَ فى القرآنِ وحـدَه ، ولَّوْا على أدبارهم نفُوراً (٤٦) نحن أعلَمُ بمـا يستمعُونَ به ، إذ يستمعُونَ إليكَ وإذْ هُمْ نجوَى ، إذْ يقولُ الظالِمُونَ إنْ تتَّبِعُونَ إلاَّ رجلاً مسحُوراً (٤٧) انظُر كيفَ ضربُوا الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعونَ سبيلاً (٤٨) » .

والخطاب فى قوله - تعالى - : وإذا قرأت القرآن .... ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقوله « حجابا » من الحجب بمعنى المنع .

قال صاحب المصباح : حجبه حجبا - من باب قتل - منعه . ومنه قيل للستر حجاب ، لأنه يمنع المشاهدة . وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من الدخول . والأصل فى الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد إستعمل فى المعانى فقيل : العجز حاجب ، أى : بين الإنسان ومراده ....[1]

وقوله « مستورا » أى : ساترا ، فهو من إطلاق إسم المفعول وإرادة إسم الفاعل . كميمون بمعنى يامن . ومشئوم بمعنى شائم .

وإختار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر ، من كونه إسم مفعول ، لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورا به القارىء فلا يراه غيره ويجوز أن يكون مستورا ، أى : ذا ستر فهو للنسب كمكان

---

(١) المصباح المنير حـ ١٢١ للشيخ الفيومى .

مهول : ذو هول .. وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال ، أشهرهـا قولان :

أولهما يرى أصحابه ، أن المراد بالحجاب المستور ، ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين عن الإنتفاع بهدى القرآن الكريم ، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم . فهو حجاب معنوى خفى ، حال بينهم وبين الإنتفاع بالقرآن .

فهم يستمعون اليه ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به ، فكان إستماعهم له كعدمه ، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فقهه .

والمعنى : وإذا قرأت ـ أيها الرسول الكريم ـ القرآن الهادى إلى الطريق التى هى أقوم ، جعلنا ـ بقدرتنا ـ ومشيئتنا ـ ، بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، حجابا يحجبهم ويمنعهم عن إدراك أسراره وهداياته ، وساترا بينك وبينهم ، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول إنتفاع وهداية .

ويشهد لهذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » (١)

ومن المفسرين الذين إكتفوا بهذا القول ، فلم يذكروا غيره ، الإمام البيضاوى ، فقد قال ـ رحمه الله : قوله : «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم ماتقرؤه عليهم « مستورا » ذا ستر : كقوله ـ تعالى ـ « وعده مأتيا » أو مستورا عن الحس ... » (٢)

أما القول الثانى فيرى أصحابه : أن المراد بالحجاب المستور ، أن الله ـ تعالى ـ يحجب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أعين المشركين ، بحيث لا يرونه فى أوقات معينة ، لحكم منها النجاة من شرورهم .

---

(١) سورة فصلت الآية ٥

(٢) تفسير البيضاوى حـ ١ ص ٥٨٧

فيكون المعنى : وإذا قرأت القرآن - أيها الرسول الكريم - جعلنا بينك وبين هؤلاء الكافرين ، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا يرونك ، عندما تكون المصلحة فى ذلك .

وقد أستشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت سورة « تبت يد أبى لهب » جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفى يدها فهر - أى حجر - وهى تقول : مذمما أتينا ، وأمره عصينا ، ودينه قلينا : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس ، وأبو بكر إلى جنبه .

فقال أبو بكر : يارسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : إنها لن ترانى ، وقرأ قرآنا إعتصم به منها ، - يعنى قرأه - : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » .

فجاءت حتى قامت على أبى بكر ، فلم تر النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك هجانى : فقال أبو بكر : لاورب هذا البيت ما هجاك .

فانصرفت وهى تقول : لقد علمت قريش أنى بنت سيدها »[1]

ومن المفسرين الذين إستظهروا هذا القول ، الإمام القرطبى ، فقد قال بعد أن ذكر ماروى عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - : وقال سعيد بن جبير : لما نزلت سورة « تبت يدا أبى لهب وتب » جاءت أمرأة أبى لهب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك فإنها أمرأة بذيه .

---

(١) تفسير إبن كثير جـ ٥ ص ٨٩

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنه سيحال بينى وبينها » فلم تره . فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر هجانا صاحبك .

فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما رأتك ؟

قال : لا . ما زال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت »

ثم قال القرطبى : وقيل : الحجاب المستور ، طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ، ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك ، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيته لك ، حتى كأن على قلوبهم أغطية . . .

ثم قال : والقول الأول أظهر فى الآية »(١)

ويبدو لنا أن كلا القولين صحيح فى ذاته ، وأن كل واحد منهما يحكى حالات معينة ، ويشهد لذلك ما نقله الجمل فى حاشيته على الجلالين عن شيخه فقد قال - رحمه الله - . قوله « حجابا مستورا » أى : ساترا لك عنهم فلا يرونك وهذا بالنسبة لبعضهم ، كان يحجب بصره عن رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم إذا أراد « بمكروه وهو يقرأ القرآن ، وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معانى القرآن . . . وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن .. (٢)

وقوله - تعالى - : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » يؤكد أن المشركين كانوا طوائف متعدده بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم ، ومن النبى - صلى الله عليه وسلم -

أى : وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالآخرة « أكنة أن يفقهوه » أى : أغطيه تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم ، وفهمه فهما سليما .

---

(١) تفسير القرطبى حـ ١٠ ص ٢٦٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٨ - بتصرف وتلخيص -

وجعلنا - أيضا - : «فى آذانهم وقرا» ، أى : صمما وثقلا عظيما يمنعهم من سماعه سماعا ينفعهم .

وقوله - سبحانه - : «وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا» بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة .

أى : وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم - ربك فى القرآن وحده ، دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين «كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة» .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد صورتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير ، لتزيد فى فضيحتهم وجهلهم ، ولتجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .

ثم ساق - سبحانه - مايدل على كمال علمه . وأنه - تعالى - سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقوبات ، فقال - عز وجل - «نحن أعلم بما يستمعون به . إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا» .

والباء فى قوله - سبحانه - «بما يستمعون» متعلقة بأعلم . ومفعول «يستمعون» محذوف ، تقديره ، القرآن .

قال الآلوسى : قوله : «نحن أعلم بما يستمعون به» أى : متلبسين به من اللغو والاستخفاف ، والاستهزاء بك وبالقرآن . يروى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقوم عن يمينه رجلا من بنى عبد الدار ، وعن يساره رجلان منهم ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار - إذا قرأ القرآن - .

ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام . أى : نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء ، وهم متعلقة بيستمعون ... وأفعل التفضيل فى العلم والجهل يتعدى بالباء ، وفى سوى ذلك يتعدى باللام ، فيقال : هو أكسى

للفقراء ، والمراد من كونه - سبحانه - أعلم بذلك : الوعيد لهم ... [1] .

وإذ فى قوله « إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى » ظرف لأعلم .

ولفظ « نجوى » مصدر بمعنى التناجى والمسارة فى الحديث . وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة ، كما فى قولهم : قوم عدل .

ويجوز أن يكون جمع نجى ، كقتلى جمع قتيل « أى : وإذا هم متناجون فى أمرك .

والمعنى : نحن - أيها الرسول الكريم - على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم - حين تتلوه عليهم ، وبالطريقة التى يستمعون إليك . وعلى علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى ، وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، والتواصى بمعصيتك .

فالجملة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن القرآن ، وتسلية له - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وبيان لشمول علم الله - تعالى - لكل أحوالهم الظاهرة والخفية .

وقوله - تعالى - « إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » بدل من قوله - تعالى - « وإذ هم نجوى » .

والمسحور . هو الذى سحر فاختلط عقله ، وزالت عنه الهيئة السوية .

أى : ونحن أعلم بهؤلاء الأشقياء - أيضا - عندما يقول بعضهم لبعض : لا تتبعوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فيما يدعو إليه ، فإنكم إن اتبعتموه تكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا ، أصابه السحر فأخرجه عن وعيه وعقله .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٨٩ .

وقال - سبحانه - «إذ يقول الظالمون» بالإظهار دون الإضمار، لتسجيل الظلم عليهم فيما تفوهوا به، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم .

وقوله - تعالى - «انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا» تسلية عظيمة - للرسول - صلى الله عليه وسلم، وتثبيت له وللمؤمنين على الطريق الحق الذى هداهم الله - تعالى - إليه .

أى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - كيف أن هؤلاء المشركين، قد بلغ بهم الجحود والفجور، أنهم مثلوا لك الأمثال، فوصفوك تارة بأنك مسحور، وتارة بأنك شاعر .

وهم فى وصفهم هذا، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا، وصاروا كالحيران الذى التبست عليه الطرق، فأمسى لا يعرف السبيل الذى يسلكه .

هذا، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات، مايدل على أن المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند قراءته للقرآن، فقال :

قال محمد بن إسحاق فى السيرة : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى، أنه حـــدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق ... خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع إليه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا، ثم انصرفوا،

حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه. فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان ابن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال أبو سفيان : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ولا ما يراد بها .

فقال الأخنس : وأنا والذى حلفت به .قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل . فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعت وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا وأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرس رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال: فقام عنه الأخنس وتركه[1].

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم الباطلة ، فى شأن البعث والحساب يوم القيامة ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - :

« وقالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا ورفاتاً ، أئِنَّا لمبعُوثون خلقاً جديداً (٤٩) قُلْ كونُوا حجارةً أو حـديداً (٥٠) أو خلقاً ممـا يكْبُر فى صُدورِكُم ، فسيقولُون من يُعِيدُنَا ، قُلِ الذى فطركُم أَولَ مرةٍ ، فَسَيُنْغِضُون إليكَ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٨١ طبعة دار الشعب - القاهرة .

رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا (٥١) يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (٥٢) » .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى لما تكلم أولا فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، ذكر فى هذه الآية شبهات القوم فى إنكار المعاد والبعث والقيامة . . . »[1] .

والرفات : ما تكسر وبلى من كل شىء كالفتات. يقال : رفت فلان الشىء يرفته - بكسر الفاء وضمها - ، إذا كسره وجعله يشبه التراب .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أئذا كنا . . . » وفى قوله « أئنا لمبعوثون ... » للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله - تعالى - ، ولنبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وللبعث والحساب ، قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الإنكار والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد ، عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذى كنا عليه فى الدنيا ؟

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق، بقدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، وكرر - سبحانه - الاستفهام فى الآية الكريمة ، للإشعار بإيغالهم فى الجحود والإنكار .

والعامل فى « إذا » محذوف ، والتقدير : أنبعث أو أنحشر إذا كنا عظاما ورفاتا ، وقد دل على هذا المحذوف قوله - تعالى - : « مبعوثون » .

وقوله - سبحانه - : « قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٢٢٤ .

صدوركم ، أمر من الله ـ تعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرد عليهم فيما استبعدوه وأنكروه من إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقير من شأنهم ، والتعجيز لهم : « كونوا » ـ إن استطعتم ـ «حجارة» كالتى تعبدونها من دون الله ، « أو حديدا » كالذى تستعملونه فى شئون حياتكم ، « أو » كونوا « خلقا » أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد « مما يكبر » أى : يعظم ويستبعد « فى صدوركم » المظلمة قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شىء من ذلك أو غيره إن استطعتم ـ ، فإن الله ـ تعالى ـ لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكى يحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .

فالمقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة الله ـ تعالى ـ لا يعجزها شىء ..

قال الجمل : أجابهم الله ـ تعالى ـ بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما . فليس المراد الأمر ، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجز ثم الله ـ تعالى ـ عن الإعادة »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : « فسيقولون من يعيدنا » أى : فسيقولون لك ـ أيها الرسول الكريم ـ من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرهما ؟

وقوله ـ سبحانه ـ : «قل الذى فطركم أول مرة » رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله ـ تعالى ـ الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٢٩

مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى . كما قال ـ تعالى ـ : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[١] .

ثم بين ـ سبحانه ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الإجابات السديدة ، فقال : « فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو » .

أي : فسيحركون إليك رءوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب , متى هو ذلك اليوم الذي سنعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورفاتا .

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب . ومن استبعاد لحصوله كما قال ـ تعالى ـ : حكاية عنهم في آية أخرى . « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

وقوله ـ تعالى ـ : « قل عسى أن يكون قريبا » تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم .

أي : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل التأنيب والوعيد : عسى هذا اليوم الذي تستبعدون حصوله ، يكون قريبا جدا وقوعه .

ولا شك في أنه قريب ، لأن عسى في كلام الله ـ تعالى ـ لما هو محقق الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب ، ولأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بالسبابة والوسطى ـ .

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوالهم عندما يدعون في هذا اليوم الهائل الشديد فقال : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده .... » .

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم...، ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من « قريبا » .

والداعى لهم هو « إسرافيل » - عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور ، كما قال - تعالى - : ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون»[١].

وكما قال - سبحانه - : فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر »[٢] .

وقوله « بحمده » حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للملابسة .

أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة وانقياد ، حال كونهم حامدين الله - تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب ...

قال صاحب الكشاف : وقوله « بحمده » حال منهم . أى : حامدين،وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب مايشق عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتقسر قسرا . حتى أنك تلين لين المسمح - أى الذليل - الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك »[٣] .

وقوله « فتستجيبون بمعنى تجيبون ، إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة ، فهى أوكد من الإجابة ، وأسرع فى التلبية .

---

(١) سورة الزمر . الآية ٦٨

(٢) سورة القمر . الآيات ٦ ، ٧ ، ٨

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٧٢

وجملة « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » حالية ، أى : والحال أنكم تظنون عند بعثكم أنكم مالبثتم فى الدنيا أو فى قبوركم إلازمنا قليلا .

قال قتاده : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت، حين رأوا يوم القيامة ، لهول مايرون فقالوا هذه المقالة .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين[١] .

وقوله - تعالى - : ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون[٢].

وقوله - تعالى - : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها[٣] .

ثم ترك القرآن الكريم أولئك الذين كفروا بالبعث والنشور فى طغيانهم يعمهون ، ووجه خطابه إلى المؤمنين ، آمرا إياهم بأن يقولوا الكلمة الطيبة ، ومبينا لهم ولغيرهم ، أن مصائرهم بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى - :

« وقُلْ لعبادِى يقُولوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إنَّ الشيطانَ يَنْزَغُ بينَهُم إنَّ الشَّيْطَانَ كانَ للإنسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُم أَعلَمُ بِكُم ، إنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُم ، وإنْ يَشَأْ يعذِّبْكُم، وما أَرْسَلْنَاكَ عليهِمْ وكيلاً (٥٤) وربُّكَ أَعلَمُ بِمَن فى السمواتِ والأرْضِ ، ولقدْ فضَّلْنَا بعضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وآتَيْنَا دَاودَ زبوراً (٥٥) » .

قال القرطبى : قوله -تعالى-: « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن... »الآية

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣
(٢) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢
(٣) سورة النازعات الآية ٤٦

نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم بقتله ، فكادت تثير فتنة ، فأنزل الله فيه : « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » .

وقيل : نزلت لما قال المسلمون : إيذن لنا يارسول الله فى قتال المشركين ، فقد طال إيذاؤهم لنا . فقال : « لم أومر بعد بالقتال »[1] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادي المؤمنين ، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم ، الكلمة التي هى أحسن ، والعبارة التي هى أرق وألطف .

وذلك لأن الكلمة الطيبة ، تزيد فى المودة التي بين المؤمنين ، وتكسر حدة العداوة التي بينهم وبين أعدائهم .

قال - تعالى - : ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، أدفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[2] .

قال الآلوسى : ومقول فعل الأمر محذوف ، أى : قل لهم قولوا التي هى أحسن يقولوا ذلك . فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر . وإلى هذا ذهب الأخفش .

وقال الزجاج : إن قوله « يقولوا » هو المقول ، وجزمه بلام الأمر محذوفة ، أى : قل لهم ليقولوا . . . »[3] .

وقوله - سبحانه - : « إن الشيطان ينزغ بينهم » تعليل للأمر السابق .

أى : إن الشيطان يتربص بكم ، ويتلمس السقطات التي تقع من أفواهكم ، والعثرات التي تنطق بها ألسنتكم ، لكى يشيع الشر بينكم ، ويبذر بذور السوء والبغضاء فى صفوفكم ، ويهيج أعداءكم عليكم .

وينزغ بمعنى يفسد . يقال : نزغه - كنفعه - ينزغه ، إذا طعن فيه واغتابه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢٧٦

(٢) سورة فصلت الآية ٣٤

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٩٤

وقوله : « إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم .

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس ، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله ـ سبحانه ـ من الشيطان وكيده فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »(١) .

وقوله ـ تعالى ـ : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »(٢) .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته . . . وعداوته ظاهرة بينه ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده . أى : فربما أصابه بها .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزغ فى يده ، فيقع فى حفرة من النار »(٣) .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مصير جميع الخلائق إليه ، وأنه محيط بأحوالهم فقال . ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم . . . » .

---

(١) سورة فاطر . الآية ٦

(٢) سورة الأعراف . الآية ٢٧

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٥

أى : ربكم — أيها الناس — أعلم بكم من أنفسكم ، وهو — سبحانه — إن يشأ بفضله يرحمكم ، بأن يوفقكم لطاعته وتقواه ، وإن يشأ بعدله يعذبكم ، بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره ، لا يسأل — عز وجل — عما يفعل ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

وقوله — تعالى — : « وما أرسلناك عليهم وكيلا » بيان لوظيفة الرسول — صلى الله عليه وسلم —

أى : وما أرسلناك — أيها الرسول الكريم — إلى الناس ، لتكون حفيظا ورقيبا ، وموكولا إليك أمرهم فى إجبارهم وإكراههم على الدخول فى الإسلام ، وإنما أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

ثم إنتقل — سبحانه — من بيان كمال علمه بأحوال الناس ، إلى بيان كمال علمه بجميع من فى السموات والأرض ، فقال — تعالى — : « وربك أعلم بمن فى السموات والأرض » .

أى : وربك — أيها الرسول الكريم — أعلم بأحوال من فى السموات والأرض من إنس وجن وملك ، وغير ذلك ، ولا يخفى عليه شىء من ظواهرهم أو بواطنهم ، ولا يعزب من علمه — تعالى — شىء من طاعتهم أو معصيتهم ، ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل رسالته ، وتبليغ وحيه كما قال — تعالى — : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

وقوله — سبحانه — . « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا » بيان لمظهر من مظاهر علمه المطلق ، وفضله العميم ، وعطائه الواسع والزبور : هو الكتاب الذى أنزله الله — تعالى — على داود — عليه السلام

أى : ولقد فضلنا — على علم وحكمة منا — بعض النبيين على بعض ، بأن جعلنا منهم من كلم الله ، ومنهم من إتخذناه خليلا لنا ، ومنهم من آتيناه البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم من آتيناه الزبور وهو داود — عليه السلام —

قال الإمام إبن كثير : وقوله ـ تعالى ـ : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » وقوله ـ تعالى ـ « تلك الرسول فضلنا بعضهم على بعض ... » لا ينافى ماثبت من الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء » فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شىء وجب إتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصا فى قوله — تعالى — : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى إبن مريم ... »

ولا خلاف فى أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — أفضلهم . . . » (١)

وإنما خص كتاب داود بالذكر ، لأن اليهود زعموا أنه لا نبى بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة ، فكذبهم الله — تعالى — فى ذلك ، ولأن فى هذا الإيتاء إشارة إلى أن تفضيل داود لم يكن بسبب ما أعطاه الله من ملك ، بل بسبب ما أعطاه من كتاب فيه إشارة إلى تفضيل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته ، قال — تعالى — : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » (٢)

والمراد بالعباد الصالحين : محمد ـ صلى الله عليه وسلم — وأمته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا عرف الزبور، كما عرف فى قوله: « لقد كتبنا فى الزبور ... » ؟

قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور ، كالعباس وعباس ، والفضل وفضل . ويجوز أن يريد : وآتينا داود بعض الزبر ـ وهى الكتب ، وأن يريد ماذكر فيه ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الزبور ، فسمى ذلك زبورا ؛ لأنه بعضها كما سمى بعض القرآن قرآنا » (٣)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٦

(٢) سورة الأنبياء الآيه ١٠٥

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٧٢

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتحدى المشركين، بأن يبين لهم : أن آلهتهم المزعومة لاتملك دفع الضر عنهم ، أو جلب الخير لهم ، بل إن هذه الآلهة لتخاف عذاب الله ، وترجو رحمته ، فقال ـ سبحانه ـ :

« قُل ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، فلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّر عَنكُم ولاَ تَحوِيلاً (٥٦) أُولئِكَ الذينَ يَدْعُونَ يبتَغُونَ إلى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقرَبُ ، ويرجُونَ رحمَتَه ويخافُونَ عـذابَه ، إنَّ عذابَ رَبِّكَ كانَ محذُوراً (٥٧) » .

أورد المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :

قال ابن كثير : قال العوفى عن ابن عباس فى قوله : « قل أدعوا الذين زعمتم من دونه .... » .

قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا .

وروى البخارى وغيره عن ابن مسعود فى قوله : « أولئك الذين يدعون » قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء — أى الإنس — بدينهم ... فنزلت هذه الآية »[1] .

وقال القرطبي : لما ابتليت قريش بالقحط ، وشكوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، أنزل الله هذه الآية : « قل أدعوا الذين زعمتم من دونـــه ... »[2]

والمراد بالزعم هنا : الظن الكاذب الذى لاأساس له من الحقيقة والواقع.

قال الآلوسى مامخلصه : والزعم قريب من الظن ، ويقال إنه القول

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٦

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٢٧٩

المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب ، حتى قال ابن عباس : كل ماورد فى القرآن زعم فهو كذب .

وقد يطلق على القول الحقق ، والصدق الذى لاشك فيه ... فقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : زعم جبريل كذا ... » .

وهو مما يتعدى إلى مفعولين ، وقد حذفا هنا ، أى : زعمتموهم آلهة .. والظاهر أن المراد من الموصول - الذين - كل من عبد من دون الله من العقلاء »[1]

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . قل لهم على سبيل الإرشاد والتحدى : هذه الآلهة التى تعبدونها ، اطلبوا منها أن تدفع عنكم مانزل بكم من ضر كمرض أو فقر أو قحط ، أو أن تحوله منكم إلى غيركم ...

فإذا لم تستطع ذلك - وهى بكل تأكيد لاتستطيع ولن تستطيع - فاتركوا عبادتها ، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو على كل شىء قدير ، وهو الله - عز وجل - .

واكتفى - سبحانه - بذكر كشف الضر ، لأنه هو الذى تتطلع إليه النفوس عند نزول المصائب ، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع ، إذ عند نزول الضر ، لاتشتغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه .

ثم بين - سبحانه - أن كل معبود - سوى الله - عز وجل - يفتقر إلى عونه - سبحانه - ، وإلى رجاء الثواب منه ، وإلى دفع العذاب عنه ، فقال - تعالى - « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ... » واسم الإشارة « أولئك » يعود على المعبودين من دون الله ، وهو مبتدأ ، وخبره .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٩٧ .

قوله : « يبتغون وما عطف عليه من قوله : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » .

والضمير فى « يدعون » يعود إلى المشركين ، وفى يبتغون يعود إلى المعبودين و « أيهم » بدل من واو الفاعل فى يبتغون ، و « أقرب » خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : هو أى : يبتغيها الذى هو أقرب ، والجملة صلة أى .

والوسيلة : ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من الأعمال الصالحة .

والمعنى : أولئك المعبودون الذين يزعم المشركون أنهم آلهة . ويسمونهم أربابا ، وينادونهم لكشف الضر عنهم ، هؤلاء المعبودون « يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب »

أى : يتقربون إلى خالقهم ومالك أمرهم بصالح الأعمال، ويبتغى أكثرهم صلاحا وطاعة لله - تعالى - الرضا منه - عز وجل -

وإذا كان هذا شأن أكثرهم قربا فكيف يكون حال من هو أقل منه ؟ لاشك أنه يكون أشد طلبا لرضا الله - تعالى - وعفوه، وأشد حرصا على طاعته

وقوله - تعالى - « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله - تعالى -

أى : وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله - تعالى - وفضله ، بأن يحشرهم مع الأبرار ، ويخشون عذابه ونقمته ، ويتضرعون إليه أن يجنبهم عذاب النار ، وبالرجاء والخشية يحيى الصالحون الأخيار ، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح ، والخشية تمنعه من الوقوع فى المعاصى .

وقوله - تعالى - : « إن عذاب ربك كان محذورا » تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب .

أى : إن عذاب ربك كان جديرا وقمينا بأن يحذره ويحترز منه كل عاقل.

وقدم — سبحانه — الرجاء على الخوف ، لأن متعلقه أسبق ، ولأنه بجانب الله — تعالى — أظهر ، ففى الحديث القدسى: « إن رحمتى سبقت غضبى ».

هذا ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير »(١).

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد قررتا بأسلوب منطق بليغ ، أن الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء ، وأنه وحده هو المتصرف فى شئون عباده ، وأن كل مخلوق سواه - سبحانه - محتاج إلى عونه وعفوه ورضاه ، وأن الذين زعمهم المشركون آلهة كعيسى وعزير والملائكة ... ماهم إلا من عباد الله الذين يبتغون إليه الوسيلة ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

ثم ساق — سبحانه — سنة من سننه التى لا تتخلف ، وبين جانبا من مظاهر فضله على هذه الأمة ونبيها - صلى الله عليه وسلم . فقال — تعالى —:

« وإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إلاّ نحنُ مُهلِكُوهاَ قبلَ يومِ القيامةِ، أو مُعَذِّبوهاَ عذاباً شديداً كانَ ذلكَ فى الكتابِ مسطُوراً (٥٨) وما منَعَنـاَ أَنْ نُرسِلَ بالآياتِ إلا أن كذَّبَ بها الأولُونَ ، وآتينَا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً فظلَمُوا بها ، وما نرسِلُ بالآياتِ إلا تخويفاً (٥٩) وإذ قُلْنَا لكَ إنَّ ربَّكَ أَحاطَ بالناسِ ، وما جَعَلْنَا الرُّؤيَا التى أَرَيْنَاكَ إلاَّ فِتنةً للناسِ والشَّجرة الملعُونَةَ فى القرآنِ ونُخوِّفُهم فما يَزِيدُهُم إلاَّ طُغياناً كبيراً (٦٠) » .

والمقصود بالقرية فى قوله — تعالى — : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٢ .

قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا » : قرى الكفار والظالمين ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، فيكون المعنى :

وما من قرية من قرى الظالمين، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب ، أو معذبوها عذابا شديدا ، يستأصل شأفتها ، ويقطع دابرها ، كما فعلنا مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك ، الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : هذا إخبار من الله — عز وجل .. ، بأنه قد حتم وقضى، بما كتب عنده في اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها ، بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذابا شديدا ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد »[١] .

ويرى آخرون، أن المقصود بالقرية هنا: القرى كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين .

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الآلوسي — رحمه الله — فقد قال: قوله - تعالى — : « وإن من قرية » الظاهر العموم، لأن «إن» نافية «ومن» زائدة لاستغراق الجنس . أي : وما من قرية من القرى ، « إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة » بإماتة أهلها حتف أنوفهم « أو معذبوها عذابا شديدا » بالقتل وأنواع البلاء . . . وروى عن مقاتل أنه قال : الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة . . . »[٢]

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون »[٣] . وقوله - سبحانه - : ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ١٠٠ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .

وأهلها غافلون »(١) . وقوله — عز وجل — : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »(٢) ، ولأن الله — تعالى — قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة ، وكونه كذلك يقتضي أنه للقرى الظالمة . إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى ، ســـواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين ، بسبب انقضاء عمر الدنيا .

وقوله — سبحانه — : « كان ذلك في الكتاب مسطورا » تأكيد لقضاء الله النافذ ، وحكمه الثابت .

أي : « كان ذلك » الإهلاك والتعذيب « في الكتاب » وهو اللوح المحفوظ « مسطورا » أي : مكتوبا وثابتا .

قال القرطبي : « مسطورا » أي : مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة ، وهو في الأصل مصدر . والسطر — بالتحريك — مثله ، وهو جمع أسطار ، مثل سبب . وجمع السطر — بسكون الطاء — أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ »(٣) .

ثم بين — سبحانه — بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية ، ورحمته بها ، فقال — تعالى — : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون .... »

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هـــذه الآية آثارا منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : سأل أهل مكة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٣١ .

(٢) سورة هود الآية ١١٧ .

(٣) تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٢٨٠ .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا بل استأنى بهم » ، وأنزل الله قوله : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون .... »(١)

قال الآلوسى : والمنع لغة : كف الغير وقسره عن فعل يريد أن يفعله ، ولاستحالة ذلك فى حقه ـ تعالى ـ لاستلزامه العجز المحال المنافى للربوبية قالوا : إنه مستعار هنا للصرف والترك ....»(٢)

وقوله : « أن نرسل » فى محل نصب لأنه مفعول ثان لمنعنا ، أو فى محل جر، على حذف الجار ، أى : من أن نرسل . وقوله . « إلا أن كذب بها » فى محل رفع لأنه فاعل منعنا ، والتقدير : وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

والمراد بالآيات : مااقترحه المشركون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قلب الصفا ذهبا ، ومن إزاحة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها ...

والمعنى : وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التى طلبها المشركون منك ـ أيها الرسول الكريم ـ إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم ، كما كذب بأمثالها أشباههم الأولون ، وفى هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب الاستئصال كما جرت بذلك سنتنا .

وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا ـ بأمتك أيها الرسول الكريم ـ ، ألا نعذبهم عذاب الاستئصال والمحو ، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة .

قالوا : ومن الحكم فى هذا التأخير : الإظهار لمزيد شرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كما قال ـ تعالى ـ : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، والرعاية لشأن من سيولد من بعضهم من المؤمنين ، ولمن سيؤمن من هؤلاء المقترحين ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يعلمها إلا هو ـ سبحانه ـ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٣ .

قال صاحب الكشاف : استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة .... والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ، ومن إحياء الموتى وغير ذلك .

وعادة الله في الأمم ، أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ، ثم لم يؤمن ، أن يعاجل بعذاب الاستئصال . فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال مايقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم ، كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك ، وقالوا : هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها . واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة »[1] .

ثم ساق - سبحانه - مثالا للسابقين الذين أجيبوا إلى مااقترحوه ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأخذهم عذاب الاستئصال ، فقال - تعالى - : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » .

وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، وخصهم بالذكر ، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر من غيرهم ، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد الشام .

والناقة المراد بها : ناقة صالح - عليه السلام - التي طلبها قومه منه ، فأخرجها الله - تعالى - لهم لتكون معجزة له ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم الله - تعالى - بالصيحة التي جعلتهم في دارهم جاثمين .

وقوله « مبصرة » أي : معجزة واضحة ، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس ، قال الجمل : « مبصرة » بكسر الصاد - باتفاق السبعة ، والإسناد مجازي . أي : يبصرونها خارجة من الصخرة . وقرىء شاذا بفتح الصاد . ثم قال : وفي السمين : مبصرة حال ، وهو إسناد مجازي ، إذ المراد الإبصار

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٧٤ .

المعنوى ، وهو الاهتداء بها ، والتوصل بها ، إلى تصديق نبيهم ، وعلى هذا تظهر السببية ، فإن وجودها سبب فى هذا المعنى ... »(١)

وقال الآلوسى : وقوله : « مبصرة » على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة، والمراد : ذات إبصار ، أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها ، فالصيغة للنسب ... »(٢)

والمعنى : لقد تركنا إجابة المطالب التى اقترحها قومك - يا محمد - ، رحمة بهم ، لأننا لو أعطيناهم إياها ثم استمروا فى تكذيبهم لك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين . فقد أجبنا قوم صالح - عليه السلام - إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة فى الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها .

قال - تعالى - : « فعقروا الناقة - أى ذبحوها - ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين »(٣) .

وقال - سبحانه - : « كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » .

وقوله - سبحانه - : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتى به الأنبياء من هدايات ومعجزات تدل على صدقهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٢ ص ٦٣٢ .
(٢) تفسير الآلوسى حـ ١٥ ص ١٠٤ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان ٧٧ ، ٧٧ .

والباء فى قـــوله « بالآيات » للملابسة ، ومفعول « نرسل » محذوف ، و« تخويفا » مفعول لأجله .

والمعنى : ومانرسل رسلنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا تخويفا لأقوامهم من سوء عاقبة تكذيبهم لها ، فإنهم إن كذبوها يصيبهم من العذاب مايصيبهم .

قال القرطبى قوله : « ومانرسل بالآيات إلا تخويفا » فيه خمسة أقوال : الأول : العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل ، من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين . الثانى : أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى . الثالث : أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك . الرابع : القرآن . الخامس : الموت الذريع »(1) .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مايزيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثباتا على ثباته ، ويقينا على يقينه ، ومايدل على شمول علمه ـ تعالى ـ ونفاذ قدرته ، وبليغ حكمته فقال : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس . . . »

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن قلنا لك على لسان وحينا : إن ربك ـ عز وجل ـ قد أحاط بالناس علما وقدرة ، فهم فى قبضته ، وتحت تصرفه ، وقد عصمك منهم ، فامض فى طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، دون أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم ، عدوانا على حياتك ، فقد عصمك ـ سبحانه ـ منهم .

وفى هذه الجملة مافيها من التسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومن التبشير له ولأصحابه ، بأن العاقبة ستكون لهم ، ومن الحض لهم على المضى فى طريقهم دون أن يخشوا أحدا إلا الله .

---

(1) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨١ .

والمراد بالرؤيا فى قوله ـ تعالى ـ : « وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » : مارآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاينه بعينيه من عجائب ، ليلة الإسراء والمعراج .

أي : وما جعلنا مارأيته وعاينته ليلة إسرائنا بك من غرائب ، إلافتنة للناس ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وسليم القلب من مريضه .

وأطلق ـ سبحانه ـ على ماأراه لنبيه ليلة الإسراء لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة ، لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام ، وعلى رؤية اليقظة ليلا فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، كما فى قول الشاعر يصف صائدا : وكبر للرؤيا وهش فؤاده . . . أى : وسر لرؤيته للصيد الذى سيصيده . أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية ، نظرا لما رآه فى تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية ، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن مارآه قد كان ليلا .وقد كان فى سرعته كأنه رؤيا منامية .

وكان مارآه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك الليلة فتنة للناس ، لأنه لما قص عليهم ما رآه ، أرتد بعضهم عن الإسلام ، وتردد البعض الآخر فى قبوله ، وضاقت عقولهم عن تصديقه ، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يعرج إلى السموات العلا . . . . ثم يعود إلى مكة ، كل ذلك فى ليلة واحدة .

وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا : ما رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه . . . .

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : ما أراه الله ـ تعالى ـ لنبيه فى منامه ، من مصارع المشركين قبل غزوة بدر ؛ فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل بدء المعركة : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . ثم أومأ إلى الأرض وقال : هذا مصرع فلان . وهذا مصرع فلان .

والذى نرجحه هو الرأى الأول ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه على الرأيين الثانى والثالث يترجح أن الآية مدنية ، لأن غزوة بدر وفتح مكة كانا بعد الهجرة ، والتحقيق أن هذه الآية مكية .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس . . . » لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ، ضم إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله ـ تعالى ـ : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » قال : هى رؤيا عين أريها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس . . . .

وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أسرى به .

وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها .

وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية ، هى رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ـ فرده المشركون عن دخولها فى تلك السنة ـ ، فافتتن بعض المسلمين لذلك ، فنزلت هذه الآية . . . . وفى هذا التأويل ضعف . لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . . . . »[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : « والشجرة الملعونة فى القرآن » معطوف على الرؤيا . أى : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس .

والمراد بالشجرة الملعونة هنا : شجرة الزقوم ، المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨٢ .

« أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين »(١) .

والمراد بلعنها : لعن الآكلين منها وهم المشركون ، أو هى ملعونة لأنها تخرج فى أصل الجحيم ، أوهى ملعونة لأن طعامها مؤذ وضار ، والعرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون .

قال الآلوسى : وروى فى جعلها فتنة لهم : أنه لما نزل فى شأنها فى سورة الصافات وغيرها مانزل ، قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . ومانعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد ، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرا وزبدا ، وقال لأصحابه : تزقموا .

وافتتن بهذه الآية أيضا بعض الضعفاء ، ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا . . . »(٢) .

وقوله - تعالى - : « ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا » تذييل قصد به بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود ، وقسوة قلب . . .

أى : ونخوف هؤلاء المشركين بعذاب الدنيا ، وبعذاب الآخرة . وبشجرة الزقوم التى طلعها كأنه رءوس الشياطين . . . فما يزيدهم هذا التخويف والتهديد إلا طغيانا متجاوزا فى ضخامته وكبره كل حد ، وكل عقل سليم .

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال ، مع أن تخويفهم وازدياد طغيانهم قد وقعا ، للإشعار بالتجدد والاستمرار .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، ومن فضله على هذه الأمة ، ومن تبشيره وإنذاره ، ووعده ووعيده ، مايزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ومايصرف الطاغين عن طغيانهم لو كانوا يعقلون .

---

(١) سورة الصافات الآيات ٦١ — ٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٦ .

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا من قصة آدم وإبليس ، لزيادة التسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللإشعار بأن الحسد والغرور ، كما منعا إبليس من السجود لآدم ، فقد منعا مشركى مكة من الإيمان بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ تعالى ـ :

« وإذْ قُلنَا لِلملائكةِ اسجُدُوا لآدمَ فسجَدُوا إلاّ إبليسَ قالَ أأسْجُدُ لِمَنْ خَلقتَ طِيناً (٦١) قالَ أرأيتَكَ هذَا الذى كرَّمتَ عَلَىَّ ، لَئنْ أخَّرتَنِ إلَى يوم القيامَةِ لأحتنكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قليلاً (٦٢) قال اذهَبْ فمَنْ تَبِعَكَ منهُم فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكم جـزاءً مَوْفوراً (٦٣) واستَفْزِزْ مِنَ استَطَعتَ مِنْهم بصَوْتِك ، وأَجْلِبْ عليْهم بخَيلِكَ ورَجِلِك وشارِكْهُم فى الأموَالِ والأولادِ وعِدْهُم ، وما يَعِدُهُم الشيطانُ إلا غروراً (٦٤) إنَّ عبادِى ليْسَ لكَ عليْهِم سُلطَانٌ وكَفَى بربِّكَ وكيلاً (٦٥) » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .... » تذكير لبنى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويستمروا على عداوتهم لإبليس وجنده .

أى : واذكروا ـ يا بنى آدم ـ وقت أن قلنا للملائكة « اسجدوا لآدم » سجود تحية وتكريم « فسجدوا » امتثالا لأمر الله ـ تعالى ـ ، بدون تردد أو تلعثم ، « إلا إبليس » فإنه أبى السجود لآدم ـ عليه السلام ـ « وقال » بتكبر وعصيان لأمر ربه ـ عز وجل ـ : « أأسجد » وأنا المخلوق من نار « لمن خلقت طينا » أى : أأسجد لمن خلقته من طين ، مع أننى أفضل منه .

والتعبير بقوله « فسجدوا » بفاء التعقيب ، يفيد أن سجودهم ـ عليهم السلام ـ كان فى أعقاب أمر الله ـ تعالى ـ لهم مباشرة ، بدون تأخير أو تسويف .

وقوله - تعالى - : «قال أأسجد ... » استئناف بيانى ، فكأنه قيل : فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر ؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ماقال .

والاستفهام فى « أأسجد » للإنكار والتعجب ، لأنه يرى - لعنه الله - أنه أفضل من آدم .

وقوله : « طينا » منصوب بنزع الخافض أى : من طين .

وقد جاء التصريح بإباء إبليس عن السجود لآدم ، بأساليب متنوعة ، وفى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »(١) .

وقوله - تعالى - : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين »(٢) .

ثم فصل - سبحانه - ماقاله إبليس فى اعتراضه على السجود لآدم فقال : « قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا » .

ورأى هنا علمية فتتعدى إلى مفعولين ، أولهما « هذا » والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه ، والكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله ، والاسم الموصول « الذى » بدل من « هذا » أو صفة له ، والمراد من التكريم فى قوله « كرمت على » : التفضيل .

والمعنى : قال إبليس فى الرد على خالقه - عز وجل - : أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، والذى فضلته على ، لماذا فضلته على وأمرتنى بالسجود له مع انى أفضل منه ، لأنه مخلوق من طين ، وأنا مخلوق من نار !!

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٤ .

(٢) سورة الحجر الآية ٣٠ ، ٣١ .

وجملة لماذا كرمته على، واقعة موقع المفعول الثانى.

ومقصود إبليس من هذا الاستفهام، التهوين من شأن آدم ـ عليه السلام ـ والتقليل من منزلته. ولم يجبه ـ سبحانه ـ على سؤاله، تحقيرا له. وإهمالا لشخصه، بسبب إعتراضه على أمر خالقه ـ عز وجل.

ثم أكد إبليس كلامه فقال: «لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريتــه إلا قليلا». إذ أن اللام فى قوله «لئن...» موطئة للقسم، وجوابه لأحتنكن.

وأصل الاحتناك: الاستيلاء على الشيء، أو الإستئصال له. يقال: حنك فلان الدابة يحنكها ـ بكسر النون ورفعها ـ إذا وضع فى حنكها ـ أى فى ذقنها ـ الرسن ليقودها به. ويقال: إحتنك الجراد الأرض، إذا أكل نباتها وأتى عليه.

والمعنى: قال إبليس ـ متوعدا ومهددا ـ: لئن أخرتن ـ يا إلهى ـ إلى يوم القيامة، لأستولين على ذرية آدم، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصى والشهوات، إلا عددا قليلا منهم فإنى لا أستطيع ذلك بالنسبة لهم، لقوة إيمانهم، وشدة إخلاصهم.

وهذا الذى ذكره ـ سبحانه ـ عن إبليس فى هذه الآية من قوله: «لأحتنكن ذريته إلا قليلا» شبيه به قوله ـ تعالى ـ: «ثم لآتينهم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين»(١).

وقوله ـ تعالى ـ «قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا على عبادك منهم المخلصين»(٢).

قال بعض العلماء: وقول إبليس فى هذه الآية: «لأحتنكن ذريته..»

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧
(٢) سورة ص الآية ٨٢، ٨٣

قاله ظنا منه أنه سيقع . وقد تحقق له هذا الظن - فى كثير من بنى آدم - كما قال - تعالى - « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين[١] .

وقوله - تعالى - « قال إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » بيان لما توعد الله - سبحانه - به إبليس وأتباعه .

والأمر فى قوله « إذهب » للإهانة والتحقير ، أى : «قال» الله - تعالى - لإبليس « إذهب » مطرودا ملعونا ، وقد أخرناك إلى يوم القيامة ، فافعل ما بدالك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ، جزاء مكملا متمما لا نقص فيه .

وقال - سبحانه - « فإن جهنم جزاؤكم » مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب فى قوله « فمن تبعك منهم » ، تغليبا لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب الغائب وهم أتباعه . لأنه هو السبب فى إغراء هؤلاء الأتباع

وقوله : « جزاء » مفعول مطلق ، منصوب بالمصدر قبله .

وقوله « موفورا » اسم مفعول ، من قولهم وفر الشيء فهو وافر وموفور أى : مكمل متمم . وهو صفة لقوله : « جزاء » .

وهذا الوعيد الذى توعد الله - تعالى - به إبليس وأتباعه ، جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - : « قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » .

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى ، فقال - تعالى - : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - إبليس بأوامر خمسة ، القصد بها : التهديد والاستدراج ، لا التكليف ، لأنها كلها معاص ، والله لا يأمر بها »[٢] .

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٠ (٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٣٤

وهذه الأوامر الخمسة هي : اذهب ، واستفزز . . . وأجلب . . . وشاركهم . . . . وعدهم .

وقوله : واستفزز ، من الاستفزاز ، بمعنى الاستخفاف والإزعاج. يقال: استفز فلان فلانا إذا استخف به ، وخدعه ، وأوقعه فيما أراده منه . ويقال: فلان استفزه الخوف ، إذا أزعجه .

وقوله : « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » أصل الإجلاب : الصياح بصوت مسموع . يقال : أجلب فلان على فرسه وجلب عليه ، إذا صاح به ليستحثه على السرعة فى المشى .

قال الآلوسى : قوله « واجلب عليهم » أى : صح عليهم من الجلبة وهى الصياح . قاله الفراء وأبو عبيده . وقال الزجاج : أجلب على العدو ، جمع عليه الخيل . وقال ابن السكيت : جلب عليه : أعان عليه . وقال ابن الأعرابى : أجلب على الرجل ، إذا توعده الشر ، وجمع عليه الجمع .

والخيل : يطلق على الأفراس ولا واحد له من لفظه ، وعلى الفرسان مجازا ، وهو المراد هنا .

ومنه قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى بعض غزواته لأصحابه : « يا خيل الله اركبى » . والرجل — بكسر الجيم — بمعنى راجل — كحذر بمعنى حاذر — هو الذى يمشى رجلا ، أى غير راكب . . . »[1] .

والمعنى . قال الله — تعالى — لإبليس : اذهب أيها اللعين مذءوما مدحورا ، فإن جهنم هى الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم ، وافعل ماشئت معهم من الاستفزاز والخداع والإزعاج وهو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصى ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم ولإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١١١ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، وإجلابه بخيله ورجله ؟

قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل . مثلث حاله فى تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده ، من خيالة ورجالة حتى استأصلهم . وقيل : بصوته ، أى : بدعائه إلى الشر ، وبخيله ورجله : أى كل راكب وماش من أهل العيث . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال »[1] .

وعلى أية حال ، فالجملة الكريمة تصوير بديع ، لعداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنه معهم فى معركة دائمة ، يستعمل فيها كل وسائل شروره ، ليشغلهم عن طاعة ربهم ، وليصرفهم عن الصراط المستقيم ، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى شىء من أغراضه الفاسدة ، ماداموا معتصمين بدين ربهم - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - : « وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم » معطوف على ما قبله .

أى : وشاركهم فى الأموال ، بأن تحضهم على جمعها من الطرق الحرام ، وعلى إنفاقها فى غير الوجوه التى شرعها الله ، كأن يستعملوها فى الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة .

وشاركهم فى الأولاد بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الحنيف ، وبأن تيسر لهم الوقوع فى الزنا الذى يترتب عليه ضياع الأنساب ، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من وساوسك التى تغرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية يألفون معها الشرور والآثام ، والفسوق والعصيان :

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق عددا من الأقوال فى ذلك : وأولى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٧٨ .

الأقوال بالصواب أن يقال : كل مولود ولدته أنثى ، عصى الله فيه ، بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه ، من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : « وشاركهم فى الأموال والأولاد » معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصى الله فيه أو به ، وأطيع الشيطان فيه ، أو به فهو مشاركة ... »(١) .

وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله : وهذا الذى قاله - ابن جرير - متجه ، فقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يقول الله - عز وجل - إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

وفى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً »(٢) .

وقوله : « وعدهم » أى : وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة . كأن تعدهم بأن الدنيا هى منتهى آمالهم . فعليهم أن يتمتعوا بها كيف شاءوا ، بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق . وكأن تعدهم بأنه ليس بعد الموت حساب أو عقاب ، أو جنة أو نار ...

وقوله - سبحانه - « وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » تحذير من الله - تعالى - لعباده من اتباع الشيطان ، ومن السير وراء خطواته .

وأصل الغرور : تزيين الباطل بما يوهم بأنه حق ، يقال : غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته - أى غفلته - ونال منه ما يريد : وغر فلان فلانا فهو يغره

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠ .

غرورا، إذا خدعه، وأصله من الغر، وهو الأثر الظاهر من الشيء. ومنه غرة الفرس لأنها أبرز مافيه. ولفظ «غرورا» صفة لموصوف محذوف.

والتقدير: وعدهم - أيها الشيطان - بما شئت من الوعود الكاذبة، ومايعد الشيطان بنى آدم إلا وعدا غرورا.

ويجوز أن يكون مفعولا لأجله فيكون المعنى: وما يعدهم الشيطان إلا من أجل الغرور والمخادعة.

وفى الجملة الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة، إهمالا لشأن الشيطان، وبيانا لحاله مع بنى آدم، حتى يحترسوا منه ويحذروه.

ثم ختم - سبحانه - الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين، فقال - تعالى -: «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلا».

أى: إن عبادى الصالحين الذين أخلصوا دينهم لى، ليس لك - ياإبليس - تسلط واقتدار على إغوائهم وإضلالهم، وصرفهم عن السبيل الحق إلى السبيل الباطل.

قال - تعالى -: «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون»(١).

وقال - سبحانه - «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين»(٢) والإضافة فى قوله «إن عبادى ...» للتشريف والتكريم حيث خصهم - سبحانه - بهذا اللون من الرعاية والحماية.

وقوله «وكفى بربك وكيلا» أى: وكفى بربك وكيلا يتوكلون عليه، ويفوضون إليه أمورهم، ويعتصمون به لكى يقيهم وساوس الشيطان ونزغاته قال الإمام ابن كثير: قوله «وكفى بربك وكيلا» أى: حافظا ومؤيدا ونصيرا.

---

(١) سورة النحل الآيتان ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة الحجر الآية ٤٢.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال «إن المؤمن لينضى شيطانه — أي ليقهره — كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر»[١].

وقال الجمل فى حاشيته : وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله، وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال، لأنه لو كان الإقدام على الحق، والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه، لوجب أن يقال : وكفى بالإنسان نفسه فى الاحتراز عن الشيطان. فلما لم يقل ذلك، بل قال : وكفى بربك وكيلا. علمنا أن الكل من الله. ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعته إلا بقوته»[٢].

وبعد أن بين - سبحانه - لبنى آدم ما بيته إبليس من عداوة وبغضاء، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه - تعالى - عليهم فى البر والبحر وفى السراء والضراء فقال - عز وجل - :

«رَبُّكُم الذى يُزْجِى لكُم الفُلْكَ فى البحر لِتَبْتَغُوا مِنْ فضلِه إنهُ كانَ بكُم رحيما (٦٦) وإذَا مسَّكُم الضُّرُّ فى البحرِ ضَلَّ مَنْ تدعُونَ إلاَّ إياهُ، فَلَمَّا نجاكُم إلى البَرِّ أعرَضْتُم، وكانَ الإنسانُ كفُوراً (٦٧) أفأمِنْتُم أن يخسِفَ بكُم جانِبَ البرِّ أو يُرْسِلَ عليكُم حاصِباً، ثم لا تجِدُوا لكُم وكيلاً (٦٨) أمْ أمِنْتُم أن يُعِيدكُم فيه تارةً أُخْرَى، فيُرسِلَ علَيكُم قاصِفاً من الريحِ فيُغْرِقكُم بما كفَرْتم، ثم لا تجِدُوا لكُم علَينَا به تبِيعاً (٦٩)».

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٥٥

وقوله - تعالى - : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ... » بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده، وفضله عليهم.

و « يزجى » من الإزجاء، وهو السوق شيئا فشيئا. يقال أزجى فلان الإبل، إذا ساقها برفق، وأزجت الريح السحاب، أى: ساقته سوقا رفيقا، ومنه قوله - تعالى - : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ... ».

و « الفلك » ما عظم من السفن. قال الجمل ما ملخصه: ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع، ويذكر ويؤنث. قال - تعالى - : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون » فأفرد وذكر. وقال - سبحانه - : « والفلك التى تجرى فى البحر » فأنث، ويحتمل الإفراد والجمع. قال - تعالى - : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ... » فجمع ...»[1].

و « البحر » يطلق على الماء الكثير عذبا كان أو ملحا. وأكثر ما يكون إطلاقا على الماء الملح.

أى: اذكروا - أيها الناس - لتعتبروا وتشكروا ربكم الذى من مظاهر نعمته عليكم، أن يسوق لكم - بلطفه وقدرته - السفن التى تركبونها فى البحر لكى تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذى يصلح معاشكم، والذى هو لون من ألوان فضل الله عليكم.

وقوله: لتبتغوا من فضله، تعليل لإزجاء الفلك، وتصرفه بوجوه النفع التى تفضل الله - تعالى - بها عليهم

وقوله: « إنه كان بكم رحيما » تعليل ثان لهذا الإزجاء.

أى: يزجى لكم الفلك فى البحر، لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم، ولأنه - سبحانه - كان أزلا وأبدا، بكم دائم الرحمة والرأفة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٣٦

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم، في حال سوق السفن ودفعها بهم في البحر برفق وأناة، إلى بيان رعايته لهم في حال اضطرابها وتعرضها للغرق، بسبب هيجان البحر وارتفاع أمواجه، فقال - تعالى - : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه .... ».

والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والاصابة والمراد به هنا : مايعتريهم من خوف وفزع، وهم يرون سفينتهم توشك على الغرق.

والمراد بالضر هنا : اضطراب الفلك، وارتفاع الأمواج، واشتداد العواصف، وتعرضهم للموت من كل مكان.

المعنى : واذا أحاطت بكم الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتم على الغرق ... ذهب وغاب عن خواطركم وأذهانكم، كل معبود سوى الله - عز وجل - لكى ينقذكم مما أنتم فيه من بلاء، بل اياه وحده - سبحانه - تدعون ليكشف عنكم مانزل بكم من سوء.

فالجملة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الانسان عند الشدائد والمحن لا يتجه بدعائه وضراعته الا الى الله - تعالى - وحده.

قال القرطبي : « ضل » معناه : تلف وفقد وهي عبارة تحقير لمن يدعى إلها من دون الله. والمعنى في هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لافعل لها في الشدائد، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل » (١)

وقال الإمام ابن كثير : يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا أمسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال - تعالى - : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » أى : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٩١

الله -- تعالى - كما إتفق لعكرمه بن أبي جهل ، لما ذهب فارا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فتح مكة ، فذهب هاربا ، فركب فى البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ،فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده .

فقال عكرمة فى نفسه : والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره ، فإنه لا ينفع فى البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه ، لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد - صلى الله عليه وسلم - فلأجدنه رءوفا رحيما . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأسلم وحسن إسلامه - رضى الله عنه »[1] .

وقوله - تعالى - : « فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله .

أى : فلما نجاكم الله - تعالى - بلطفه وإحسانه : من الغرق ، وأوصلكم سالمين إلى البر ، أعرضتم عن طاعته ، تركتم دعاءه والضراعة اليه ، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه ، « كفورا » أى : كثير الكفران والجحود لنعم ربه - عز وجل -.

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : « وكان الإنسان كفورا » كالتعليل للإعراض ، ويعلم منـــه حكم أولئك المخاطبين ، وفيه لطافة حيث أعرض - سبحانه - عن خطابهم بخصوصهم ، وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران ، فلما أعرضوا أعرض الله - تعالى - عنهم »[2]

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - ، فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون »[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١١٦

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٥

وقوله - سبحانه - : « وإذا غشيهم موجه كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور »[١]

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، لا في البحر ولا في البر ولا في غيرهما فقال : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا » ، والهمزة في قوله « أفأمنتم » للاستفهام الإنكاري ، والفاء عاطفة على محذوف ، والتقدير : أنجوتم فأمنتم .

وقوله « يخسف » من الخسف وهو انهيار الأرض بالشيء ، وتغييبه في باطنها و « جانب البر » ناحية الأرض ، وسماه - سبحانه - جانبا ، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض ، والبر يمثل جانبا آخر .

والحاصب : الريح الشديدة التي ترمي بالحصباء ، وهي الحجارة الصغيرة . يقال . حصب فلان فلانا ، إذا رماه بالحصباء .

والمعنى : أنجوتم من الغرق - أيها الناس - ففرحتم وأمنتم ونسيتم أن الله - تعالى - إذا كان قد أنجاكم من الغرق ، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض ، وقادر كذلك على أن يرسل عليكم ريحا شديدة ترميكم بالحصباء التي تهلككم ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا تكلون إليه أموركم ، ونصيرا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله - تعالى - .

إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق ، فأنتم جاهلون ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء أكنتم في البحر أو في البر أو في غيرهما ، إذ جميع جوانب هذا الكون في قبضة الله - تعالى - وتحت سيطرته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت فما معنى ذكر الجانب ؟ قلت : معناه ، أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء . وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ،

(١) سورة لقمان الآية ٣٢ .

بل إن كان الغرق فى جانب البحر ، ففى جانب البر ماهو مثله وهو الخسف ، لأنه تغييب تحت التراب ، كما أن الغرق تغييب تحت الماء فالبر والبحر عنده سيان ، يقدر فى البر على نحو ما يقدر عليه فى البحر ، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان »(١) .

ثم ساق ـ سبحانه ـ مثالا آخر للدلالة على شمول قدرته ، فقال ـ تعالى ـ : « أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح ، فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا » .

و« أم » هنا يجوز أن تكون متصلة ، بمعنى : أى الأمرين حاصل . ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل .

والقاصف من الريح : هو الريح العاتية الشديدة ، التى تقصف وتحطم كل مامرت به من أشجار وغيرها . يقال : قصف فلان الشىء ، إذا كسره .

والتبيع : فعيل بمعنى فاعل ، وهو المطالب غيره بحق سواء أكان هذا الحق دينا أو ثأرا أو غيرهما ، مع مداومته على هذا الطلب .

والمعنى : بل أأمنتم ـ أيها الناس ـ « أن يعيدكم » الله ـ تعالى ـ « فيه » أى : فى البحر ، لسبب من الأسباب التى تحملكم على العودة إليه أخرى « فيرسل عليكم » ـ سبحانه ـ وأنتم فى البحر « قاصفا من الريح » العاتية الشديدة التى تحطم سفنكم « فيغرقكم » بسبب كفركم وجحودكم لنعمه ، « ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا » أى : إننا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه ، ثم لاتجدوا لكم أحدا ينصركم علينا ، أو يطالبنا بحق لكم علينا ، فنحن لانسأل عما نفعل ، وأنتم المسئولون .

فالاستفهام هنا ـ أيضا ـ للانكار والتوبيخ .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٧٩ .

وقال ـ سبحانه ـ « أن يعيدكم فيه » ولم يقل أن يعيدكم إليه ، للاشعار باستقرارهم فيه ، وأنه ـ تعالى ـ لا يعجزه أن يفعل ذلك .

والتعبير بقوله «قاصفا من الريح» فيه من الترهيب والإنذار ما فيه لأن لفظ القصف يدل بمعناه اللغوى على التحطيم والتكسير .

وقال ـ سبحانه ـ « بما كفرتم » لبيان أن الله ـ تعالى ـ ماظلمهم بإهلاكهم، وإنما هم الذين عرضوا أنفسهم لذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن طاعته ـ سبحانه ـ .

والضمير فى « به » يعود إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله «فيغرقكم بما كفرتم» أى: لا تجدون تبيعا يتبعنا بثأركم بسبب ذلك الإغراق الذى أوقعناه بكم.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من نعم الله ـ تعالى ـ على الناس ، وحذرتهم من جحود هذه النعم ، حتى لا يتعرضوا لعذاب الله ، الذى قد ينزل بهم وهم فى البحر أو فى البر أو فى غيرهما .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ تكريمه لبنى آدم، وتفضيلهم على كثير من مخلوقاته ، وأحوالهم فى الآخرة ، فقال ـ تعالى ـ :

« ولقد كرَّمْنَا بنى آدمَ ، وحَمَلْنَاهُم فى البرِّ والبَحرِ ، ورزَقْنَاهُم مِنَ الطيباتِ ، وفضَّلْنَاهُم على كَثيرٍ مِمَّن خلَقْنَا تفضيلاً (٦٩) يومَ ندعُو كلَّ أُنَاسٍ بإمَامِهِمْ ، فمَن أُوتِيَ كتابَه بيمينِه ، فأُولئِكَ يقرءونَ كتابَهُم ، ولا يُظلَمونَ فَتيلاً (٧٠) ومَنْ كانَ فى هذهِ أعْمَى ، فهُوَ فى الآخِرةِ أعْمَى وأضَلُّ سبيلاً (٧١) .

قال الآلوسى : قوله : « ولقد كرمنا بنى آدم . . . » أى : جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ، ذوى كرم ، أى : شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر . . . »(١)

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١١٧ .

ومن مظاهر تكريم الله ـ تعالى ـ لبنى آدم، أنه خلقهم فى أحسن تقويم، كما قال ـ تعالى ـ: «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم»،

وأنه ميزهم بالعقل والنطق والاستعدادات المتعددة، التى جعلتهم أهلا لحمل الأمانة، كما قال ـ سبحانه ـ: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ...»[1]

وأنه سخر الكثير من مخلوقاته لمنفعتهم ومصلحتهم، قال ـ تعالى ـ: «الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار»[2].

وأنه سجل هذا التكريم فى القرآن الكريم: الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكفاهم بذلك شرفا وفخرا.

وقوله ـ تعالى ـ. «وحملناهم فى البر والبحر» بيان لنوع من أنواع هذا التكريم. أى: وحملناهم بقدرتنا ورعايتنا فى البر على الدواب وغير ذلك من وسائل الانتقال كالقطارات والسيارات وغيرها، وحملناهم فى البحر على السفن وعابرات البحار التى تنقلهم من مكان إلى آخر.

وقوله: «ورزقناهم من الطيبات» بيان لنوع آخر من أنواع التكريم. أى: ورزقناهم بفضلنا وإحساننا من طيبات المطاعم والمشارب والملابس، التى يستلذونها، ولا يستغنون عنها فى حياتهم.

وقوله: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» بيان لنوع ثالث من أنواع التكريم، أى: وبسبب هذا التكريم فضلناهم على كثير من مخلوقاتنا التى لاتحصى، تفضيلا عظيما.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢. (٢) سورة إبراهيم الآية ٣٢-٣٤.

وعلى هذا التفسير يكون التفضيل لونا من ألوان التكريم الذى منحه الله - تعالى - لبنى آدم .

وبعضهم يرى أن هناك فرقا بين التكريم والتفضيل ، ومن هذا البعض الإمام الفخر الرازى ، فقد قال - رحمه الله - ماملخصه: لقد قال الله - تعالى - فى أول الآية « ولقد كرمنا بنى آدم » وقال فى آخرها « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ولابد من الفرق بين هذا التكريم و التفضيل وإلا لزم التكرار .

والأقرب أن يقال: إنه -تعالى- فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية ، مثل : العقل ، والنطق ، والصورة الحسنة ... ثم إنه - تعالى - عرضه بواسطة ذلك لاكتساب العقائد الحقه ، والأخلاق الفاضلة . فالأول : هو التكريم ، والثانى : هو التفضيل »[1] .

وكأن الفخر الرازى يرى أن التكريم يرجع إلى الصفات الخلقية التى امتاز بها بنو آدم ، أما التفضيل فيرجع إلى ما اكتسبوه من عقائد سليمة ، وأخلاق قويمة .

هذا ، وقد أخذ صاحب الكشاف من هـذه الجملة وهى قوله - تعالى - : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » أن الملائكة أفضل من البشر ، لأنهم - أى الملائكة - هم المقصودون بالقليل الذى لم يفضل عليه بنو آدم .

قال - رحمة الله - : قوله : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا ... » هو ماسوى الملائكة. وحسب بنى آدم تفضيلا ، أن ترفع عليهم الملائكة -وهم هم-، ومنزلتهم عند الله منزلتهم ... »[2]

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس ، ولايلزم منه تفضيل كل فرد على كل فرد .

---

(١) تفسير الفخر الرازى حـ ٥ ص٤٢١ .

(٢) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٦٨١ .

قال الجمل ماملخصه : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » المراد تفضيل جنس البشر على أجناس غيره كالملائكة ، ولا يلزم من تفضيل جنس البشر على جنس الملك تفضيل الأفراد ، إذ الملائكة فى جملتهم أفضل من البشر غير الأنبياء ، وصلحاء البشر - كالصديق - أفضل من عوام الملائكة، أى: غير الرؤساء منهم ، على المعتمد من طريقة التفضيل »[١] .

والذى تطمئن إليه النفس فى هذه المسألة - والله أعلم - ، : أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أفضل من الملائكة جميعا ، لأن الله - تعالى - قد أمر الملائكة بالسجود لآدم الذى جعله خليفة له فى أرضه ، دون غيره من الملائكة ...

وأن الرسل من الملائكة - كجبريل وإسرافيل وعزرائيل وميكائيل - أفضل من عموم البشر - سوى الأنبياء - ، لأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لوظائف معينة ، قال - تعالى - «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » .

وأن صلحاء البشر - كالعشرة المبشرين بالجنة - أفضل من عامة الملائكة، لأن الملائكة ليست فيهم شهوة تدفعهم إلى مخالفة ماأمر الله به... أما بنو آدم فقد ركب الله - تعالى - فيهم شهوة داعية إلى إرتكاب المعصية ، ومقاومة هذه الشهوات جهاد يؤدى إلى رفع الدرجات ...

ومن العلماء الذين بسطوا القول فى هـــذه المسألة الإمام الفخر الرازى ، فليرجع إليه من شاء[٢] .

وقوله - سبحانه - : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » شروع فى بيان تفاوت أحوال بنى آدم فى الآخرة ، بعد بيان حالهم فى الدنيا .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

ولفظ « يوم » منصوب بفعل محذوف ، أى : واذكر يوم ندعو كل أناس بإمامهم . والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .

وقد اختار هذا القول الإمام ابن كثير ورجحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا فى ذلك . فقال مجاهد وقتادة أى : بنبيهم ، وهذا كقوله - تعالى - : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » ...

وقال ابن زيد : بإمامهم أى بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير ...

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » أى : بكتاب أعمالهم ...

وهذا القول هو الأرجح لقوله - تعالى - : « وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » وقال - تعالى - : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه » ..

ويحتمل أن المراد بإمامهم : أى كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم فى الكفر ...

وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... الحديث » ...

ثم قال - رحمه الله - ولكن المراد ههنا بالإمام، هو كتاب الأعمال »[1].

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من خلقنا ، بكتاب أعمالهم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله فقال - تعالى - : « فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٢ .

أى : فمن أوتى من بنى آدم يوم القيامة ، كتابه بيمينه، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته ، فأولئك السعداء يقرءون كتابهم بسرور وابتهاج ، ولا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو الخيط المستطيل فى شق النواة، وبه يضرب المثل فى الشيء القليل و « من » فى قوله « فمن أوتى » يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، ودخلت الفاء فى الخبر وهو « فأولئك » لشبهه بالشرط .

وجاء التعبير فى قوله « أوتى كتابه بيمينه » بالإفراد ، حملا على لفظ من، وجاء التعبير بالجمع فى « أولئك » حملا على معناها .

وفى قوله ـ سبحانه ـ « بيمينه » تشريف وتبشير لصاحب هذا الكتاب الملىء بالإيمان والعمل الصالح وقال ـ سبحانه ـ : « فأولئك يقرءون كتابهم » بالإظهار ، ولم يقل : يقرءونه ، لمزيد العناية بهؤلاء السعداء ، ولبيان أن هذا الكتاب تبتهج النفوس بتكرار اسمه .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة من أوتى كتابه بشماله فقال : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

والمراد بالعمى هنا : عمى القلب لا عمى العين ، بدليل قوله ـ تعالى ـ : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

والمعنى : ومن كان من بنى آدم فى هذه الدنيا أعمى القلب ، مطموس البصيرة ، بسبب إيثاره الكفر على الإيمان ، فهو فى الدار الآخرة أشد عمى، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأنه فى الدنيا كان فى إمكانه أن يتدارك مافاته أما فى الآخرة فلا تدارك لما فاته .

وعبر ـ سبحانه ـ عن الذى أوتى كتابه بشماله بقوله ـ « ومن كان فى هذه أعمى » للإرشاد إلى العلة التى بسببها أصابه الشقاء فى الآخرة ، وهى ـ فقدانه النظر السليم ، وإيثاره الغى على الرشد ، والباطل على الحق ..

ومما يدل على أن المراد به من أوتى كتابه بشماله، مقابلته لمن أوتى كتابه بيمينه، كما جاء فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه»(١).

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لبنى آدم من التكريم والتفضيل ما من شأنه أن يحملهم على إخلاص العبادة لخالقهم، وعلى امتثال أمره، واجتناب نهيه، لكى يكونوا من السعداء فى دنياهم وآخرتهم .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من المسالك الخبيثة، التى سلكها المشركون مع النبى - صلى الله عليه وسلم - لزحزحته عن التمسك بدعوته، وكيف أن الله - تعالى - قد عصمه من كيدهم، فقال - سبحانه - :

« وإنْ كادُوا ليَفتِنُونَكَ عَنِ الذى أَوْحَيْنَا إليكَ، لتفتَرى علينَا غيرَهُ، وإذاً لاتَّخذُوكَ خليلاً (٧٢) ولوْلاَ أن ثبَّتْنَاكَ، لقد كِدْتَ تركَنُ إليهمْ شيئاً قليلاً (٧٣) إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المَماتِ ثم لاَ تجدُ لكَ علينا نصيراً (٧٤) وإنْ كادُوا ليَسْتَفِزُّونَكَ من الأرضِ ليُخرِجُوكَ منها، وإذاً لا يلبثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قليلاً (٧٥) سُنَّةَ مَنْ قَد أرسَلْنَا قبلَكَ مِنْ رُسُلِنا ولا تجدُ لسُنَّتِنَا تحويلاً (٧٦) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات روايات منها ماجاء عن سعيد بن جبير أنه قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يستلم الحجر الأسود فى طوافه، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تلم بآلهتنا ... فأبى الله - تعالى - ذلك، وأنزل عليه هذه الآية .

(١) سورة الحاقة الآيات من ١٩ إلى ٣٧ .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فسألوه شططا : وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ مايهدى لها . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ... فنزلت هذه الآية[1] .

و « إن » فى قوله « وإن كادوا ليفتنونك ... » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن .

و « كاد » من أفعال المقاربة . و « يفتنونك » من الفتنة ، وأصلها الاختبار والامتحان . يقال : فتن الصائغ الذهب ، أى : اختبره ليعرف جيده من خبيثه ، ويقال : فتنت الرجل عن رأيه ، إذا أزلته عما كان عليه ، وهو المراد هنا .

والمعنى : وإن شأن هؤلاء المشركين ، أنهم قاربوا فى ظنهم الباطل ، وزعمهم الكاذب ، أن يخدعوك ويفتنوك - أيها الرسول الكريم - عما أوحينا إليك من هذا القرآن ، لكى تفترى علينا غيره ، وتتقول علينا أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان .

وقوله : « وإذا لاتخذوك خليلا » بيان لحالهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو أنه أطاعهم فيما اقترحوه عليه .

قال الجمل ماملخصه : « وإذا حرف جواب وجزاء يقدر بلو الشرطية . وقوله : « لاتخذوك » جواب قسم محذوف تقديره : والله لاتخذوك . وهو مستقبل فى المعنى ، لأن إذا تقتضى الاستقبال ، إذ معناها المجازاة ، وهذا كقوله - تعالى - : ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون » أى : ليظلوا »[2] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢٩٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٣٩

والمعنى : لو أنك - أيها الرسول الكريم - وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة لأحبوا ذلك منك ، ولصاروا أصدقاء لك فى مستقبل أيامك .

وقد بين القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أعرض عن مقترحاتهم ورفضها ، ولم يلتفت إليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون »(١) .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا »

أى : ولولا تثبيتنا إياك - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من الحق والصدق ، بأن عصمناك من كيدهم لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا ، بسبب شدة إحتيالهم وخداعهم .

قال بعض العلماء : وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح ، براءة نبينا - صلى الله عليه وسلم - من مقاربة الركون إلى الكفار ، فضلا عن نفس الركون لأن « لولا » حرف إمتناع لوجود ، فمقاربة الركون منعتها « لولا » الامتناعية لوجود التثبيت من الله - تعالى - ، لأكرم خلقه - صلى الله عليه وسلم - فاتضح يقينا إنتفاء مقاربة الركون - أى الميل - ، فضلا عن الركون نفسه .

وهذه الآية تبين ما قبلها ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقارب الركون إليهم مطلقا . لأن قوله : « لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » : أى قاربت تركن إليهم ، هو عين الممنوع بلولا الإمتناعية »(٢)

(١) سورة يونس الآيتان ١٥ ، ١٨

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٣ صـ ٣٢١ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

ومما يشهد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين ، قول إبن عباس - رضى الله عنهما : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة ، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شيء من أحكام الله - تعالى - وشرائعه .

وعن قتادة أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين »

ثم بين - سبحانه - ما كان سيترتب على الركون اليهم - على سبيل الفرض من عقاب فقال - تعالى - : « إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لاتجد لك علينا نصيرا »

والضعف : عبارة عن أن يضم إلى شيء مثله .

أى : لو قاربت - أيها الرسول الكريم - أن تركن اليهم أقل ركون ، أو تميل اليهم أدنى ميل ، لأنزلنا بك عذابا مضاعفا فى الدنيا وعذابا مضاعفا فى الآخرة ، ثم لاتجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك علينا ، أو ظهيرا يدفع عنك عذابنا ، أو يحميك منه ، كما قال - تعالى - : « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين »

والسبب فى تضعيف العذاب ، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ، ويصغر بمقدار صغره ، ورحم الله القائل :

وكبائر الرجل الصغير صغائر   وصغائر الرجل الكبير كبائر

والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أعظم الخلق على الإطلاق ، لذا توعده الله - تعالى - بمضاعفة العذاب ، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون .

وقريب من هذا المعنى قوله - تعالى - « يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا » (١)

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٠

قال صاحب الكشاف : وفى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وإرتفاع منزلته ، وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجشو عندها ويتدبرها فهى جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وإزدياد التصلب فى دين الله »(١)

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مكيدة أخرى من مكايد المشركين ، وهى محاولتهم إخراج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بلده ، لكى يعكفوا على عبادة آلهتهم الباطلة دون أن ينهاهم عن ذلك أحد ، فقال ـ تعالى ـ : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... »

قال الإمام إبن كثير عند تفسيرة لهذه الآية ما ملخصه : قيل نزلت فى اليهود إذ أشاروا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسكنى الشام ، بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة كان بعد ذلك . . .

ثم قال : وقيل نزلت فى كفار قريش ، حين هموا بإخراج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله ـ تعالى ـ بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعدة بمكة الازمنا يسيرا ...(٢) .

وما ذهب اليه إبن كثير ـ رحمة الله ـ من أن الآية مكية ، هو الذى تسكن اليه النفس . فيكون المعنى : « وإن كادوا » أى : كفار مكة « ليستفزونك من الأرض » أى : ليزعجونك ويحملونك على الخروج من الأرض التى على ترابها ولدت وفيها نشأت ، وهى أرض مكة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٦٨٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٢

وقوله : « وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا » بيان لسوء مصيرهم إذا ما أخرجوه - صلى الله عليه وسلم - من مكة .

أى : ولو أنهم إستفزوك وأجبروك على الخروج إجبارا ، لما لبثوا « خلافك » أى : بعد خروجك الا زمنا قليلا ، ثم يصيبهم ما يصيبهم من الهلاك والنقم .

ومع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم قد خرج من مكة مهاجرا بأمر ربه إلا أنه - سبحانه - قد مكن نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من مشركى مكة فى غزوة بدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا نحو ذلك ، وكانت المدة بين هجرته - صلى الله عليه وسلم - وبين غزوة بدر تقل عن سنتين .

وهكذا حقق الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وأنزل وعيده باعدائه .

ثم بين - سبحانه - أن نصرة رسله سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا » .

ولفظ « سنة » منصوب على أنه مصدر مؤكد . أى : سن الله ما قصه عليك سنة ، وهذه السنة هى أننا لا نترك بدون عقاب أمة أخرجت رسولها من أرضه ، وقد فعلنا ذلك مع الأقوام السابقين الذين أخرجوا أنبياءهم من ديارهم ولا تجد - أيها الرسول الكريم - لسنتنا وطريقتنا تحويلا أو تبديلا ، ولولا أننا قد منعنا عن قومك عذاب الاستئصال لوجودك فيهم ، لأهلكناهم بسبب إيذائهم لك ، وتطاولهم عليك .

قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... »

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من المسالك الخبيثة التى إتبعها المشركون مع النبى - صلى الله عليه وسلم - كما حكت لنا ألوانا من فضل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم ، حيث عصمه من أى ركون إليهم ووعده بالنصر عليهم .

ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يعينه على التغلب على كيد المشركين، وإلى ما يزيده رفعة فى الدرجة، وبشره بأن ما معه من حق، سيزهق ما مع أعدائه من باطل فقال - تعالى -

« أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غسَقِ اللَّيلِ، وقُرآنَ الفجرِ، إنَّ قرآنَ الفجرِ كانَ مَشهوداً (٧٨) ومن اللَّيلِ فتهجَّدْ بهِ نافِلةً لكَ، عسَى أن يبْعثَكَ ربُّكَ مَقاماً محموداً (٧٩) وقُلْ ربِّ أَدْخِلنِي مُدْخَل صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخْرجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي من لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠) وقُلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطِلُ، إنَّ الباطلَ كانَ زهوقاً (٨١) » .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى نظم هذه الآيات مع ما قبلها وجوه الأول : أنه - تعالى - لما قرر الإلهيات والمعاد والنبوات، أردفها بذكر الأمر بالطاعات . وأشرف الطاعات . بعد الإيمان الصلاة ؛ فلهذا أمر بها .

الثانى : أنه - تعالى - لما قال : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها . » أمره - تعالى - بالإقبال على عبادته لكى ينصره عليهم . . كما قال - تعالى - : ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ... » [١]

وقوله - سبحانه - « أقم الصلاة لدلوك الشمس » أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة، من وقت زوالها وميلها عن وسط السماء لجهة الغرب . يقال : دلكت الشمس تدلك - بضم اللام - إذا مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه . ومادة « دلك » تدل على التحول والانتقال

---

(١) تفسير الفخر الرازى حـ ٥ ص ١٢٧

ولذلك سمى الدلاك بهذا الاسم . لأن يده لا تكاد تستقر على مكان معين من الجسم .

وتفسير دلوك الشمس هنا بمعنى ميلها وزوالها عن كبد السماء ، مروى عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وأنس ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

وقيل المراد بدلوك الشمس هنا غروبها . وقد روى ذلك عن على ، وابن مسعود ، وابن زيد .

قال بعض العلماء : والقول الأول عليه الجمهور ، وقالوا : الصلاة التى أمر بها ابتداء من هذا الوقت . هى صلاة الظهر ، وقد أيدوا هذا القول بوجوه منها : ماروى عن جابر أنه قال ، طعم عنـــدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فقال - صلى الله عليه وسلم - هذا حين دلكت الشمس .

ومن الوجوه - أيضا - النقل عن أهل اللغه ، فقد قالوا : إن الدلوك فى كلام العرب : الزوال ، ولذا قيل للشمس إذا زالت . دالكة[1] .

وقوله : « إلى غسق الليل » أى : إلى شدة ظلمته .

قال القرطبي : يقال : غسق الليل غسوقا . وأصل الكلمة من السيلان . يقال : غسقت العين إذ سالت تغسق . وغسق الجرح غسقانا ، أى : سال منه ماء أصفر ... وغسق الليل : اجتماع الليل وظلمته .

وقال : أبو عبيدة : الغسق : سواد الليل ... »[2] .

والمراد من الصلاة التى تقام من بعد دلوك الشمس إلى غسق الليل : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٦٠ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٠٤ .

وقوله - تعالى - : « وقرآن الفجر » معطوف على مفعول « أقم » وهو الصلاة .

والمراد بقرآن الفجر : صلاة الفجر وسميت قرآنا ، لأن القراءة ركن من أركانها ، من تسمية الشيء باسم جزئه ، كتسمية الصلاة ركوعا وسجوداً وقنوتا .

وقوله « إن قرآن الفجر كان مشهودا » تنويه بشأن صلاة الفجر ، وإعلاء من شأنها .

أي : داوم - أيها الرسول الكريم - على أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وداوم على صلاة الفجر - أيضا - فإن صلاتها مشهودة من الملائكة ومن الصالحين من عباد الله - عز وجل - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ثبتت السنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد ، خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » .

يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ..... »[1] .

وقال الإمام الفخر الرازي : وفي الآية احتمال ، وهو أن يكون المراد من قوله - تعالى - : « إن قرآن الفجر كان مشهودا » الترغيب في أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة . ويكون المعنى : إن صلاة الفجر مشهودة بالجماعة الكثيرة »[2] .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٤ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٤٢٩ .

وقوله - سبحانه - « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » إرشاد إلى عبادة أخرى من العبادات تطهر القلب ، وتسمو بالنفس إلى مراقى الفلاح ، وتعينها على التغلب على الهموم والآلام .

والجار والمجرور « ومن الليل » متعلق بقوله « فتهجد » أى . تهجد بالقرآن بعض الليل . أو متعلق بمحذوف تقديره : وقم قومة من الليل فتهجد و «من» للتبعيض .

قال الجمل : والمعروف فى كلام العرب أن الهجود عبارة عن النوم بالليل . يقال : هجد فلان ، إذا نام بالليل .

ثم لما رأينا فى عرف الشرع أنه يقال لمن انتبه بالليل من نومه وقام إلى الصلاة أنه متهجد ، وجب أن يقال : سمى ذلك متهجدا من حيث أنه ألقى الهجود . فالتهجد ترك الهجود وهو النوم ... »[1] .

والضمير فى « به » يعود إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله - تعالى - « وقرآن الفجر » ، إلا أنه ذكر فى الآية السابقة بمعنى الصلاة ، وذكر هنا بمعناه المشهور ، ففى الكلام ما يسمى فى البلاغة بالاستخدام .

والنافلة : الزيادة على الفريضة ، والجمع نوافل . يقال : تنفل فلان على أصحابه ، إذا أخذ زيادة عنهم .

أى : واجعل - أيها الرسول الكريم - جانبا من الليل ، تقوم فيه ، لتصلى صلاة زائدة على الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليك وعلى أمتك .

قال - تعالى - : يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا .

قالوا : وقيام الليل كان واجبا فى حقه - صلى الله عليه وسلم - بصفة خاصة ، زيادة على الصلاة المفروضة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٤٢ .

أخرج البيهقى فى سننه عن عائشة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : ثلاث هن على فرائض ، وهن لكم سنة : الوتر ، والسواك وقيام الليل » .

ومن العلماء من يرى أن قيام الليل كان مندوبا فى حقه - صلى الله عليه وسلم - كما هو الشأن فى أمته ، ومعنى « نافلة لك » أى : زيادة فى رفع درجاتك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أما غيرك فقد شرعنا النافلة تكفيرا لخطاياه .

وقوله - عز وجل - : «عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » بيان لما يترتب على أدائه للصلوات بخشوع وخضوع ، من سمو فى المكانة ، ورفعة فى الدرجة .

وكلمة عسى فى كلام العرب تفيد التوقع ، أما فى كلام الله - تعالى - فتفيد الوجوب والقطع .

قال الجمل : اتفق المفسرون على أن كلمة « عسى » من الله - تعالى - تدخل فيما هو قطعى الوقوع ، لأن لفظ عسى يفيد الإطماع ، ومن أطمع إنسانا فى شىء ، ثم حرمه ، كان عارا عليه والله - تعالى - أكرم من أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه » .

أى : داوم أيها الرسول الكريم على عبادة الله وطاعته لنبعثك يوم القيامة ونقيمك مقاما محمودا ، ومكانا عاليا ، يحمدك فيه الخلائق كلهم .

والمراد بالمقام المحمود هنا ، هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة . ليريح الناس من الكرب الشديد ، فى موقف الحساب .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فى فى هذا منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً - جمع جثوة كخطوة وخطا - أى جماعات - كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا » .

وروى الإمام أحمد والترمذى عن أبى بن كعب عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم . وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن قوله ـ تعالى ـ : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فقال : « هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه »[1] .

وقال الآلوسى : والمراد بذلك المقام، مقام الشفاعة العظمى فى فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول كذلك ، ثم محمد فيشفع فيقضى الله ـ تعالى ـ بين الخلق ، فيمشى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله ـ تعالى ـ مقاما محمودا ، يحمده أهل الجمع كلهم »[1] .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يكثر من اللجوء إليه عن طريق الدعاء، بعد أن أمره بذلك عن طريق المداومة على الصلاة، فقال ـ تعالى ـ : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » .

والمدخل والمخرج ـ بضم الميم فيهما ـ مصدران بمعنى الإدخال والإخراج، فهما كالمجرى والمرسى وإضافتهما إلى الصدق من إضافة الموصوف لصفته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٥

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٤٠

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين المراد من ذلك ، فأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم ، أن المراد : بالإدخال : دخــــول المدينة ، وبالإخراج : الخروج من مكة ، ويدل عليه ما أخرجه أحمد، والطبرانى، والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه ، وجماعة ، عن ابن عباس قال : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله — تعالى — عليه هذه الآية . وبدأ بالإدخال لأنه الأهم . . .

ثم قال : والأظهر أن المراد إدخاله — عليه الصلاة والسلام — إدخالا مرضيا فى كل مايدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر ، وإخراجه — من كل مايخرج منه خروجا مرضيا — كذلك — ، فتكون الآية عامة فى جميع الموارد والمصادر . . . . »(1)

ويبدو لنا أن المعنى الذى أشار إليه الآلوسى — رحمه الله — بأنه الأظهر ، هو الذى تسكن إليه النفس ، ويدخل فيه غيره دخولا أوليا ، ويكون المعنى:

وقل — أيها الرسول الكريم — متضرعا إلى ربك : يارب أدخلنى إدخالا مرضيا صادقا فى كل ما أدخل فيه من أمر أو مكان ، وأخرجنى كذلك إخراجا طيبا صادقا من كل أمر أو مكان .

والمراد بالسلطان فى قوله — تعالى — : « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » الحجة البينة الواضحة التى تقنع العقول ، والقوة الغالبة التى ترهب المبطلين .

أى : واجعل لى — يا إلهى — من عندك حجة تنصرنى بها على من خالفنى ، وقوة تعيننى بها على إقامة دينك ، وإزالة الشرك والكفر .

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى فقال : قوله : « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » أى : حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكا وعزا قويا ناصرا للإسلام على الكفر ، مظهرا له عليه ، فأجيبت دعوته بقوله :

---

(1) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٣ .

« والله يعصمك من الناس » « فإن حزب الله هم الغالبون » ليظهره على الدين كله « ليستخلفنهم فى الأرض » ووعده لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له .

وعنه صلى الله عليه وسلم - أنه استعمل « عتاب بن أسيد » على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على اهل الله ، فكان شديدا على المريب . لينا على المؤمن ، وقال : لا والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق .

فقال أهل مكة : يارسول الله لقد استعملت على أهل الله « عتاب بن أسيد » أعرابيا جافيا .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا ، حتى فتح له فدخلها ، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير »(١) .

وقال ابن كثير - بعد أن ساق بعض الأقوال فى معنى الآية الكريمة - قوله : « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قال الحسن البصرى فى تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس والروم وليجعلنه له .

وقال قتادة فيها : إن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله . ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم . . .

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول - تعالى - : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . . . »

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٩٨

وفى الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ، ما لا يمتنع كثير من الناس عن ارتكابه بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع »(١) .

وفى قوله - تعالى - : « واجعل لى من لدنك » تصوير بديع لشدة القرب والاتصال بالله - تعالى - ، واستمداد العون منه - سبحانه - مباشرة ، واللجوء إلى حماه بدون وساطة من أحد .

ثم بشره - سبحانه - بأن النصر له آت لا ريب فيه فقال - تعالى - « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

والحق فى لغة العرب : الشىء الثابت الذى ليس بزائل ولا مضمحل . والباطل على النقيض منه .

والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التى جاء بها النبى - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه - عز وجل -

والمراد بالباطل : الشرك والمعاصى التى ما أنزل الله بها من سلطان والمراد بزهوقه : ذهابه وزواله . يقال : فلان زهقت روحه ، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الشكر لربك ، والاعتراف له بالنعمة ، والاستبشار بنصره . قل : جاء الحق الذى أرسلنى به الله - تعالى - وظهر على كل ما يخالفه من شرك وكفر ، وزهق الباطل ، واضمحل وجوده وزالت دولته ، إن الباطل كان زهوقا ، أى : كان غير مستقر وغير ثابت فى كل وقت . كما قال - تعالى - : « قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد »(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ (٢) سورة سبأ الآيتان ٤٨ ، ٤٩

وكما قال ـ سبحانه ـ : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ... »[١] .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ـ عند فتحها ـ وحول البيت ستون وثلثمائة صنم . فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر قال : دخلنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فأمر بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكبت على وجهها . وقال « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »[٢] .

وقال القرطبي: فى هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين ،وجميع الأوثان إذا غلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التى لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى...»[٣]

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المسلمين فى شخص نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمداومة على كل ما يقربهم من الله ـ تعالى ـ ، ولاسيما الصلاة التى هى صلة بين العبد وربه ، وبشرت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنحه المقام المحمود من ربه ـ عز وجل ، وبأن ما معه من حق وصدق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل و كذب ، فإن سنة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن تكون العاقبة للمتقين .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٩ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣١٤ .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين أحوال الإنسان فى حالتى اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، وأن كل إنسان يعمل فى هذه الدنيا على حسب طبيعته ونيته وميوله ، فقال - تعالى - :

« وَنُنَزِّلُ من القرآنِ ما هُوَ شفاءٌ ورَحمــةٌ للمؤمنينَ ولاَ يزيدُ الظَّالمِينَ إلاَّ خساراً (٨٢) وإذا أَنْعَمنَا على الإنسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بجانِبِه وإِذَا مسَّهُ الشرُّ كانَ يئُوساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يعمَلُ عَلَى شاكِلتِهِ ، فَرَبُّـكُم أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سبيلاً (٨٤) .

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : اعلم أنه - تعالى - لما أطنب فى شرح الإلهيات والنبوات ، والحشر والمعاد والبعث ، وإثبات القضاء والقدر ، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ، ونبه على مافيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك فى القرآن ، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة . فقال - تعالى - : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

ثم قال : ولفظة « من » ههنا ، ليست للتبعيض ، بل هى للجنس كقوله : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

والمعنى : وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ماهو شفاء ، فجميع القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين »[١] .

ومما لاشك فيه ، أن قراءة القرآن ، والعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته . شفاء للنفوس من الوسوسة ، والقلق ، والحيرة ، والنفاق ، والرذائل المختلفة ، ورحمة للمؤمنين من العذاب الذى يحزنهم ويشقيهم ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٣٢ .

إنه شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت بنور ربها، وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من هدايات وإرشادات .

إنه شفاء للنفوس من الأمراض القلبية كالحسد والطمع والانحراف عن طريق الحق ، وشفاء لها من الأمراض الجسمانية .

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : اختلف العلماء فى كونه - أى القرآن - شفاء على قولين :

أحدهما : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل .

الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه وقد روى الأئمة - واللفظ للدارقطني - عن أبي سعيد الخدرى قال : بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سرية ثلاثين راكب قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا . قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : أفيكم أحد يرقى من العقرب ؟ قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ . فبعثوا إلينا بالنزل وبعثوا إلينا بالشاء . فأكلنا الطعام أنا وأصحابى، وأبوا أن يأكلوا من الغنم . حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأخبرته الخبر ، فقال « ما يدريك أنها رقية » ؟ قلت : يارسول الله ، شيء أبقى فى روعى . قال : « كلوا وأطعمونا من الغنم »(١)

والذى تطمئن اليه النفس أن قراءة القرآن الكريم ، والعمل بما فيه من هدايات وإرشادات وتشريعات . . . كل ذلك يؤدى - بإذن الله تعالى - إلى الشفاء من أمراض القلوب ومن أمراض الأجسام .

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - فى هذه الآية « ما هو شفاء » يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه ، كالشك والنفاق وغير ذلك . وكونه شفاء

---

(١) تفسير القرطبى حـ ١٠ ص ٣٠٦

للأجسام إذا رقى عليها به، كما تدل له قصة الذى رقى الرجل اللديغ بالفاتحة، وهى صحيحة مشهورة»(١)

وبعد أن بين - سبحانه - أثر القرآن بالنسبة للمؤمنين، أتبع ذلك ببيان أثره بالنسبة للظالمين، فقال: «ولا يزيد الظالمين إلا خسارا»

أى: ولا يزيد ماننزله من قرآن الظالمين إلا خسارا وهلاكا، بسبب عنادهم وجحودهم للحق بعد إذ تبين.

قال الآلوسى: وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن، مع أنهم المزدادون فى ذلك لسوء صنيعهم، باعتباره سببا لذلك، وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مداراً للشفاء والشقاء.

كماء صــار فى الأصداف درا وفى ثغر الأفاعى صار سما (٢)

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجســا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (٣)

وقوله - تعالى - «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد» (٤)

ثم صور - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر، وعند الرخاء والشدة فقال - تعالى -: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يئوسا»

---

(١) أضواء البيان جـ ٣ ص ٦٢٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٦

(٣) سورة التوبة ١٢٤، ١٢٥

(٤) سورة فصلت الآية ٤٤

أي : «وإذا أنعمنا على الإنسان» بنعمة الصحة والغنى وما يشبههما مما يسره ويبهجه «أعرض» عن طاعتنا وشكرنا «ونأى بجانبه» أي : وابتعد عنا، وولانا ظهره والنأى : البعد، يقال : مكان ناء، أي بعيد، ونأى فلان عن الشيء نأيا وإذا ابتعد عنه.

وقوله - تعالى - : «نأى بجانبه» تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه، ويوليه ظهره، ويظهر الإستكبار والغرور. وقوله - تعالى - : «وإذا مسه الشر كان يئوسا» أي : وإذا مس الشر هذا الإنسان من فقر أو مرض، كان يئوسا وقنوطا من رحمة الله - تعالى -

فهو في حالة الصحة والغنى يبطر ويتكبر ويطغى. وفي حالة الفقر والمرض ييئس ويقنط ويستولى عليه الحزن والهم.

والمراد بالإنسان هنا جنسه، إذ ليس جميع الناس على هذه الحالة، وإنما منهم المؤمنون الصادقون الذين يشكرون الله - تعالى - على نعمه، ويذكرونه ويطيعونه في السراء والضراء.

قال - تعالى - : ولئن أذقنا الإنسان منا نعمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير»[1].

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات، من رذيلة الجحود عند اليسر، واليأس عند العسر.

قال الآلوسي ماملخصه : والمراد بالإنسان في قوله - تعالى - «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ...» جنسه، إذ يكفي في صحـــة الحكم

(١) سورة هود الآيات من ٩ - ١١.

وجوده فى بعض الأفراد ، ولا يضر وجود نقيض فى البعض الآخر ، وقيل : المراد به الوليد بن المغيرة » .

وفى إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضميره - تعالى - إيذان بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك لأن ذلك هو الذى يقتضيه الكرم المطلق ، والرحمة الواسعة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط »[2] .

وقوله - سبحانه - : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون »[3] .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شىء من أحوال الناس وأعمالهم فقال : « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

والتنوين فى قوله « كل » عوض عن المضاف إليه . أى : كل فرد .

وقوله : « شاكلته » : أى : طريقته ومذهبه الذى يشاكل ويناسب حاله فى الهداية أو الضلالة .

مأخوذ من قولهم : طريق ذو شواكل ، وهى الطرق التى تتشعب منه وتتشابه معه فى الشكل ، فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله .

قال القرطبى قوله « قل كل يعمل على شاكلته » قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على طبيعته .

وقال قتادة : نيته ، وقال ابن زيد : على دينه . وقال الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جبل عليه ...

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٧ ،

(٢) سورة فصلت الآية ٤٩ .　　　(٣) سورة الروم الآية ٣٦ .

وقيل : هو مأخوذ من الشكل. يقال: لست على شكلى ولا شاكلتى. فالشكل: هو المثل والنظير ، كقوله - تعالى - : « وآخر من شكله أزواج » .

والشكل - بكسر الشين - الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . أى الهيئة. وهذه الأقوال كلها متقاربة »(١).

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : كل واحد منكم - أيها الناس - يعمل على شاكلته وطريقته التى تشاكل حاله ، وتناسب اتجاهه ، وتتلاءم مع سلوكه وعقيدته ، فربكم الذى خلقكم وتعهدكم بالرعاية ، أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وأقوم طريقا ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالآية الكريمة تبشر أصحاب النفوس الطاهرة والأعمال الصالحة، بالعاقبة الحميدة ، وتهدد المنحرفين عن طريق الحق ، المتبعين لخطوات الشيطان، بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانبا من الأسئلة التى كانت توجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، كما ذكر الإجابة عليها لكى يجابه النبى - صلى الله عليه وسلم - بها السائلين ، فقال - تعالى - :

« وَيَسْأَلُونَكَ عن الروح قُلِ الروحُ من أمْرِ رَبِّى، ومَا أُوتيتُم من العِلْمِ إلاَّ قليلاً (٨٥) ولئن شِئْنَا لنَذْهَبَنَّ بالذِى أَوْحَيْنَا إليكَ ، ثمَّ لاتجِدُ لكَ به علَيْنَا وكيلاً (٨٦) إلاَّ رحمةً من ربِّكَ إن فضلَهُ كانَ عليكَ كبيراً (٨٧) قُلْ لئنِ اجتمعَتِ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يأتُوا بِمثلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمثله ، ولو كانَ بعْضُهم لبعْضٍ ظهيراً (٨٨) ولقدْ

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٢ .

صرّفنا للناسِ فى هـذا القرآنِ من كلّ مثلٍ ، فأبَى أكثرُ النـاسِ إلا كفوراً (٨٩) .

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : «ويسألونك عن الروح» روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا أمشى مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فى حرث وهو متوكىء على عسيب - أى على عصا - إذمر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقالوا : يامحمد ما الروح ؟ فأمسك النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى . فلما نزل الوحى قال : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ....» .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى ، أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك .

أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية : «ويسألونك عن الروح ....» .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود . أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت : «ويسألونك عن الروح ... الآية»[1] .

وكلمة الروح تطلق فى القرآن الكريم على أمور منها :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦٠

الوحى ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ... »[١] .

ومنها : القوة والثبات كما فى قوله ـ تعالى ـ : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... »[٢] .

ومنها : جبريل ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ... »[٣] .

ومنها : القرآن كما فى قوله ـ سبحانه ـ : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ... »[٤] .

ومنها : عيسى ابن مريم ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... »[٥] .

وجمهور العلماء على أن المراد بالروح فى قوله ـ تعالى ـ : « ويسألونك عن الروح ... » : مايحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقته للجسد يموت الإنسان ، وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشىء . تسبق معرفة أحواله .

وقيل المراد بالروح هنا : القرآن الكريم ، وقيل : جبريل ، وقيل : عيسى إلى غير ذلك من الأقوال التى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال .

ويبدو لنا أن ماذهب إليه جمهور المفسرين ، أولى بالاتباع ، لأن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « قل الروح من أمر ربى » يؤيد هذا الاتجاه .

قال الآلوسى : الظاهر عند المنصف ، أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته . لأن ذلك من أدق الأمور التى

---

(١) سورة غافر الآية ١٥ (٢) سورة المجادلة الآية ٢٢
(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٣ ، ١٩٤
(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ (٥) سورة النساء الآية ١٧١

لايسع أحدا إنكارها ، ويشرئب الجميع إلى معرفتها ، وتتوفر دواعي العقلاء إليها ، وتسكل الأذهان عنها ، ولاتكاد تعلم إلا بوحى ... »[١] .

و « من » فى قوله : « قل الروح من أمر ربى » بيانية. والمراد بالأمر هنا. الشأن .

والمعنى : ويسألك بعض الناس ـ أيها الرسول ـ عن حقيقة الروح ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شيء من جنس الأشياء التى استأثر الله ـ تعالى ـ وحده بعلم حقيقتها وجوهرها .

وقال ـ سبحانه ـ « قل الروح » بالإظهار ، لكمال العناية بشأن المسئول عنه .

وإضافة كلمة « أمر » إلى لفظ الرب ـ عز وجل ـ ، من باب الاختصاص العلمى، إذ الرب وحده هو العليم بشأنها، وليس من باب الاختصاص الوجودى، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله ـ تعالى ـ .

وفى هذه الإضافة مافيها من تشريف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر إلى الله ـ تعالى ـ وحده .

قال القرطبي : وقوله ـ تعالى ـ « قل الروح من أمر ربى » دليل على خلق الروح ، أى : هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله ـ تعالى ـ ، مبهما له وتاركا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز »[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٥١

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٢٤

وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، من جملة الجواب الذى أمر الله – تعالى – رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يرد به على السائلين عن حقيقة الروح .

أي : وما أوتيتم – أيها السائلون عن الروح – من العلم إلا علما قليلا ، بالنسبة إلى علمه – تعالى – الذى وسع كل شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

وإن علمكم مهما كثر فإنه لا يمكنه أن يتعلق بحقيقة الروح وأحوالها ، لأن ذلك شىء استأثر الله – تعالى – به وحده ، واقتضت حكمته – عز وجل – أن يجعله فوق مستوى عقولكم .

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية : والمنهج الذى سار عليه القرآن – وهو المنهج الأقوم – أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله ، وبعضهم عندما سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الروح ، أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمره – سبحانه – ...

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل ، ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل فى حدوده ، وفى مجاله الذى يدركه .

والروح غيب الله لا يدركه سواه ... ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف – الروح – لا يدرى ماهو ؟ ولا كيف جاء ؟ ولا كيف يذهب ؟ ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل »[١] .

وقال بعض العلماء : وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح ، المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته ، أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ،

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٣٥٧ . للأستاذ سيد قطب – رحمه الله – .

وقد أطالوا المقال فى هذا البحث ، بما لايتسع له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين أو دنيا ...

فقد استأثر الله ـ تعالى ـ بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ، ولا البحث عن حقيقته ، فضلا عن أممهم المقتدين بهم ... »[١]

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا من مظاهر قدرته ، بعد أن بين أن الروح من أمره ، فقال ـ تعالى ـ : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا » .

واللام فى قوله « ولئن شئنا ... » موطئة لقسم محذوف ، جوابه «لنذهبن» .

أى : والله لئن شئنا لنذهبن بهذا القرآن الذى أوحيناه إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، بحيث نزيله من صدرك ، ومن صدور أتباعك ، ونمحوه من الصحف حتى لا يبقى له أثر إذ أن قدرتنا لا يعجزها ، ولا يحول دون تنفيذ ماتريده حائل ..

ثم لاتجد لك بعد ذلك من يكون وكيلا عنا فى رد القرآن إليك بعد ذهابه ومحوه ، ومن يتعهد بإعادته بعد رفعه وإزالته .

قال الآلوسى : وعبر عن القرآن بالموصول فى قوله « بالذى أوحينا إليك » ، تفخيما لشأنه ، ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء ، إعلاما بحاله من أول الأمر ، وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق .. »[٢]

وقوله : « إلا رحمة من ربك » استثناء واستدراك على قوله : « لنذهبن بالذى أوحينا إليك ... »

أى : والله إن شئنا إذهاب القرآن من صدرك لأذهبناه ، دون أن تجد أحدا يرده عليك ، لكننا لم نشأ ذلك بل أبقيناه فى صدرك رحمة من ربك .

---

(١) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان . جـ ٥ ص ٤٠١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٦٤ .

قال الجمل : وفى هذا الاستثناء قولان : أحدهما : أنه استثناء متصل؛ لأن الرحمة تندرج فى قوله « وكيلا » .

أى : إلا رحمة منا فإنها إن نالتك فلعها تسترده عليك والثانى:أنه منقطع، فيتقدر بلكن أوبل ، و« من ربك » يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لرحمه - أى لكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به - »[1] .

وقوله « إن فضـــله كان عليك كبيرا » بيان لما امتن الله به على نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

أى : إن فضله كان عليك كبيرا ، حيث أنزل القرآن عليك ، وأبقاه فى فى صدرك دون أن يزيله منه ، وجعلك سيد ولد آدم، وخاتم رسله ، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لايغفل عن هاتين المنتين و القيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ، ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ »[2] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال - تعالى -: « قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا - كما حكى الله عنهم - « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، قل لهم على سبيل التحدى و التعجيز : والله لئن اجتمعت الإنس والجن ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، الذى أنزله الله - تعالى - من عنده على قلبى ... لا يستطيعون ذلك . ولو كان بعضهم لبعض مظاهرا ومعينا ومناصرا ، فى تحقيق مايتمنونه من الإتيان بمثله .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٩١ .

وخص ـ سبحانه ـ « الإنس والجن » بالذكر، لأن المنكر كون القرآن من عند الله، من جنسهما لامن جنس غيرهما كالملائكة ـ مثلا ـ، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون، ولأن التحدى إنما هو هو للانس والجن الذين أرسل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وقال ـ سبحانه ـ : « لا يأتون بمثله » فأظهر فى مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلا معينا، وللاشعار بأن المقصود نفى المثل على أى صفة كانت هذه المثلية، سواء أكانت فى بلاغته، أم فى حسن نظمه، أم فى إخباره عن المغيبات، أم فى غير ذلك من وجوه إعجازه.

وقوله : « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » معطوف على مقدر، أى : لايستطيعون الإتيان بمثله لولم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضا.

والمقصود أنهم لايستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال، وبأية صورة من الصور، لأنه متى انتفى إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة، انتفى من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمهما. وقوله : « لبعض » متعلق بقوله « ظهيرا ».

ولقد بين ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا الإتيان بعشر سور من مثله، بل بسورة واحدة من مثله.

قال ـ تعالى ـ : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »[١].

---

(١) سورة هود الآية ١٣.

وقال ـ سبحانه ـ : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »(١) .

ومع عجز المشركين عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم، إلا أنهم استمروا في طغيانهم يعمهون ، وأبوا التذكر والتدبر، ولقد صور ـ سبحانه ـ أحوالهم أكمل تصوير فقال : «ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل، فأبى أكثر الناس إلا كفورا » .

أي : ولقد صرفنا وكررنا ونوعنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، أي : من كل معنى بديع ، هو كالمثل في بلاغته ، وإقناعه للنفوس ، وشرحه للصدور ، واشتماله على الفوائد الجمة . . .

ومفعول : « صرفنا » محذوف ، والتقدير : ولقد صرفنا الهدايات والعبر بوجوه متعددة . .

وقوله ـ تعالى ـ : « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » بيان لموقف الفاسقين عن أمر ربهم من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وأوامره ونواهيه .

أي : فأبى أكثر الناس الاستجابة لهديه ، وامتنعوا عن الإيمان بأنه من عند الله ـ تعالى ـ ، وجحدوا آياته وإرشاداته ، وعموا وصموا عن الحق الذي جاءهم به من نزل عليه القرآن ، وهو رسوله الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقال ـ سبحانه ـ : « فأبى أكثر الناس » بالإظهار في مقام الإضمار ، للتأكيد والتوضيح .

والمراد بأكثر الناس : أولئك الذين بلغهم القرآن الكريم ، واستمعوا إلى آياته وتوجيهاته وتشريعاته وآدابه ، ولكنهم استحبوا الكفر على الإيمان ، وآثروا الضلالة على الهداية .

---

(١) سورة البقره الآية ٢٣ .

وعبر ـ سبحانه ـ بالأكثر ، إنصافا للقلة المؤمنة التى فتحت صدورها للقرآن ، فآمنت به ، وعملت بما فيه من أوامر ونواه ...

قال الجمل : فإن قيل : كيف جاز قوله « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » حيث وقع الاستثناء المفرغ فى الإثبات ، مع أنه لا يصح ، إذ لا يصح أن تقول: ضربت إلا زيدا .

فالجواب : أن لفظة « أبى » تفيد النفى ، فكأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا »[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت مايدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلمه ، وفضله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الناس ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض المطالب المتعنتة التى طالبها المشركون من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال ـ تعالى ـ :

« وقالُوا لَنْ نؤْمِنَ حتى تفجُر لنا مِنَ الأرْضِ ينْبُوعاً (٩٠) أو تكونَ لكَ جنــةٌ مِنْ نخيلٍ وعنَبٍ فتُفَجِّرَ الأنهـارَ خِلالَها تفجِيراً (٩١) أَوْ تُسقِطَ السَّماء كما زَعمتَ علَيْنا كِسَفاً ، أَو تأتِيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً (٩٢) أو يكونَ لكَ بيتٌ من زُخرفٍ أو ترْقَى فى السَّماء ، ولَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنزِّلَ علينـا كتاباً نقرؤه ، قل سبحانَ ربِّى هل كنتُ إلا بشراً رسولاً (٩٣) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة ملخصها : أن نفرا من زعماء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، وطلبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٤٧ .

مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك !! لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين . وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ...

فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالا ، جمعنالك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تطلب شرفا فينا ، سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ...

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مابي شيء مما تقولون ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بيني وبينكم .

فقالوا له يا محمد : فإن كنت صادقا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذي بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذي قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار ، ويبعث من معنى من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ...

وسله أن يبعث معك ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لنا جنانا وقصورا أو كنوزا من ذهب وفضة .

فقال - صلى الله عليه وسلم - مابعثت بهذا . فقالوا : فأسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ...

وقال أحدهم : لا أومن بك أبدا ، حتى تتخذ لك سلما إلى السماء ترقى فيه ، ونحن ننظر إليك . .

فانصرف - صلى الله عليه وسلم - عنهم حزينا ، لما رأى من قباعدهم عن الهدى ، فأنزل الله عليه هذه الآيات تسلية له ... »(١)

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج١٥ ص١١٠ وتفسير ابن كثير ج ٥ ص ١١٥ وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٢٨ .

والمعنى : وقال المشركون الذين لا يرجون لقاءنا لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - يا محمد : « لن نؤمن لك » ونتبعك فيما تدعونا إليه .

« حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » أى : حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه ، « ينبوعا » أى : عينا لا ينضب ماؤها ولا يغور .

يقال : نبع الماء من العين ينبع - بتثليث الباء فيهما - إذا خرج وظهر وكثر .

وقرأ بعض السبعة « تفجر » بالتخفيف - من باب نصر - وقرأ البعض الآخر « تفجر » بتشديد الجيم ، من فجر بالتشديد ، والتضعيف للتكثير .

والتعريف فى لفظ « الأرض » للعهد ، لأن المراد بها أرض مكة .

وعبر بكلمة « ينبوعا » للاشعار بانهم لا يريدون من الماء مايكفيهم فحسب ، وإنما هم يريدون ماء كثيرا لا ينقص فى وقت من الأوقات ، إذ الياء زائدة للمبالغة .

وقوله - سبحانه - : « أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا » بيان لاقتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة .

والمعنى : أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد ، « جنة » أى : حديقة ملتفة الأغصان ، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل والأعناب : تجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيما هائلا ..

وخصوا النخيل والأعناب بالذكر - كما حكى القرآن عنهم - ، لأن هذين الصنفين يعتبران من أهم الثمار عندهم ، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة فى اراضيهم ، والتى لها الكثير من الفوائد .

وقوله : « خلالها » منصوب على الظرفية ، لأنه بمعنى وسطها وبين ثناياها .

والتنوين فى قوله « تفجيرا » للتكثير ، أى : تفجيرا كثيرا زاخرا ، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك ، غنية بالمياه التى تنفعها وترويها .

وقوله - عز وجل - : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ... » اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة .

وقوله « كسفا » أي : قطعاً جمع كسفه -بكسر الكاف وسكون السين، يقال : كسفت الثوب أي : قطعته وهو حال من السماء ، والكاف في قوله : « كما » صفة لموصوف محذوف .

والمعنى : أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلا لما هددتنا به ، من أن في قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذابا متقطعا من السماء .

ولعلهم يعنون بذلك قوله - تعالى - : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، إن يشأ نخسف بهم الأرض ، أو يسقط عليهم كسفا من السماء ... »[1] .

وقيل يعنون بذلك ، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، فعجل لنا ذلك في الدنيا ، وأسقطها علينا ، كما حكى عنهم القرآن ذلك في قوله - تعالى - « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ... »[2] .

فهم يتعجلون العذاب . والرسول - صلى الله عليه وسلم - ، يرجو من الله - تعالى - الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم ، لعله - سبحانه - أن يخرج من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - « أو تأتي بالله والملائكة قبيلا » تسجيل لمطلب رابع من مطالبهم القبيحة .

قال الآلوسي : « قبيلا » أي : مقابلا ، كالعشير والمعاشر ، وأرادوا - كما جاء عن ابن عباس - عياناً .

(١) سورة سبأ الآية ٩

(٢) سورة الأنفال من ٣٢ .

وهذا كقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » ، وفى رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل ، أى : كفيلا بما تدعيه . يعنون : شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته .

وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة ... وعن مجاهد : القبيل الجماعة كالقبيلة ، فيكون حالا من الملائكة - أى : أو تأتى بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة -[1] .

ثم حكى - سبحانه - بقية مطالبهم التى لا يقرها عقل سليم فقال : « أو يكون لك بيت من زخرف »

أى : من ذهب ، والزخرف يطلق فى الأصل على الزينة ، وأطلق هنا على الذهب لأن أثمن ما يتزين به فى العادة .

« أو ترقى فى السماء » أى : تصعد إليها . يقال : رقى فلان فى السلم يرقى رقيا ورقيا أى صعد ، « ولن نؤمن لرقيك » وصعودك إليها مع مشاهدتنا لذلك « حتى تنزل علينا » منها « كتابا نقرؤه » ونفهم ما فيه » ، أى : يكون هذا الكتاب بلغتنا التى نفهمها « وبأسلوب مخاطباتنا ، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وما يدعونا إلى الإيمان بك .

ثم ختم - سبحانه هذه الآيات ، بأن أمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، فقال : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين : يا سبحان الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر ، ورسول كسائر الرسل ، وليس من شأن من كان كذلك أن يأتى بتلك المطالب المتعنتة التى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٦٩ .

طلبتموها ، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات . تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل . إلى نور الإيمان والعلم .

فالاستفهام فى قوله « هل كنت . . . » للنفى ، أى : ما كنت إلا رسولا كسائر الرسل « وبشرا مثلهم .

وقوله «سبحان ربى» يفيد التعجيب من فرط حماقتهم ، ومن بالغ جهلهم، حيث طلبوا تلك المطالب ، التى تضمنت ما يعتبر من أعظم المستحيلات ، كطلبهم إتيان الله - عز وجل - والملائكة إليهم ، ورؤيتهم لذاته - سبحانه - ، على سبيل المعاينة والمقابلة .

وهذا التعنت والعناد الذى حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الجاحدين ، قد جاء مايشبهه فى آيات أخرى، كما جاء مايدل على أنهم حتى لو أعطاهم الله-تعالى- مطالبهم، لما آمنوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون »[1] .

وقوله - سبحانه - : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم »[2] .

وقوله - عز وجل - : ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون[3] » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من شبهاتهم الفاسدة والمتعددة ، وهى زعمهم أن الرسول لايكون من البشر بل يكون ملكا . وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يبطل مدعاهم فقال :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

(٢) سورة يونس الآية ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة الحجر الآية ١٤ ، ١٥ .

« وما مَنعَ النـاسَ أَنْ يؤمِنُوا إذ جاءهُم الهُدَى ، إلا أنْ قالُوا أبعَثَ اللهُ بشَراً رسولاً (٩٤) قُلْ لو كانَ فى الأرْضِ ملائـكةٌ يمشُونَ مُطمئنِّينَ ، لنزَّلْنَا عليهِمْ من السَّماء ملَـكاً رسولاً (٩٥) قُلْ كفَى باللهِ شهِيداً بيْنِي وبيْنَـكُم ، إنَّهُ كانَ بعبادِهِ خبيراً بصيراً (٩٦) » .

قال الفخر الرازى : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة ، وأجاب عنها ، حكى عنهم شبهة أخرى ، وهى أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولا من البشر ، بل اعتقدوا أن الله ـ تعالى ـ لو أرسل رسولا إلى الخلق ، لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة ، فأجاب الله ـ تعالى ـ عن هذه الشبهة فقال : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا . . . »[1] .

والمراد بالناس هنا : المشركون منهم ، الذين استبعدوا واعتقدوا أن الرسول لا يكون من البشر ، ويدخل فيهم دخولا أوليا كفار مكة .

وجملة « أن يؤمنوا » فى محل نصب ، لأنها مفعول ثان لمنع .

وقوله : « إلا أن يؤمنوا » هو الفاعل . و « إذ » ظرف للفعل منع ، أو لقوله : « أن يؤمنوا » .

والمعنى : وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم به الرسل ، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله ـ تعالى ـ لا يبعث إليهم رجلا من البشر لكى يبلغهم وحيه ، وإنما يبعث إليهم ملكا من الملائكة لكى يبلغهم ذلك .

وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال : « إلا أن قالوا . . » للاشعار بأنه مجرد قول لاكته ألسنتهم ، دون أن يكون معهم أى مستند يستندون إليه لإثبات قبوله عند العقلاء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ٥٨ .

وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الحصر ، لبيان أنه مع بطلانه - هو من أهم الموانع والصوارف ، التي منعتهم وصرفتهم عن الدخول في الدين الحق ، الذي جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وهذا لا يمنع أن هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالحسد والعناد .

قال صاحب الكشاف : والمعنى . وما منعهم من الإيمان بالقرآن ، وبنبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا شبهة تلجلجت في صدورهم ، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة في « أبعث الله » للإنكار ، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله - تعالى - لأن قضية حكمته ، أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء »(١) .

والمتدبر في القرآن الكريم ، يرى أن هذه الشبهة - وهي إنكار المشركين كون الرسول بشرا - قد حكاها في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم . . . »(٢) .

وقوله - تعالى - : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غني حميد »(٣) .

ومما لا شك فيه أن هذه الشبهة تدل ، على أن هؤلاء الكافرين ، لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله - تعالى - ، وذلك بسبب انطماس بصائرهم ، وكثرة جهلهم ، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة .

ولذا أمر الله - تعالى - بأن يرد عليهم بما يزهق هذه الشبهة فقال - سبحانه - « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٩٩ .

(٢) سورة يونس الآية ٢ .

(٣) سورة التغابن الآية ٦

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاهلين : لو ثبت ووجد ملائكة فى الأرض ، يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس ، ويعيشون فوقها « مطمئنين » أى : مستقرين فيها مقيمين بها .

لو ثبت ذلك ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكا رسولا ، يكون من جنسهم ، ويتكلم بلسانهم ، وبذلك يتمكنون من مخاطبته ، ومن الأخذ عنه ، ومن التفاهم معه ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، فلو كان المرسل إليهم ملائكة ، لكان الرسول إليهم ملكا مثلهم ، ولو كان المرسل إليهم من البشر ، لكان الرسول إليهم بشرا مثلهم .

فكيف تطلبون أيها الجاهلون - ان يكون الرسول إليكم ملكا ، وتستبعدون أن يكون بشرا مع أنكم من البشر ؟ ! !

قال الآلوسى : قوله : « لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » أى : يعلمهم مالا تستقل عقولهم بعلمه ، وليسهل عليهم الاجتماع به ، والتلقى منه ، وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك ، لبعد ما بين الملك وبينهم . . . » .[1]

وهذا المعنى الذى وضحته الآية الكريمة - وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم - قد جاء ما يشبهه ويؤكده فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون »[2] .

وقوله - سبحانه - : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون »[3] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٧٢ .
(٢) سورة الأنعام الآيتان ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧ .

وقوله ـ عز وجل ـ : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... »[1] .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمرة الثانية ، أن يحسم الجدال معهم ، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله ـ عز وجل ـ ، فهو خير الحاكمين فقال ـ « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

أى : قل لهم فى هذه المرة من جهتك ، بعد أن قلت لهم فى المرة السابقة من جهتنا : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ يكفينى ويرضينى ويسعدنى ، أن يكون الله ـ تعالى ـ هو الشهيد والحاكم بينى وبينكم يوم نلقاه جميعا فهو ـ سبحانه ـ يعلم أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، إنه ـ تعالى ـ كان ومازال خبيرا بصيرا . أى : محيطا إحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وفى هذه الآية الكريمة تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه منهم من أذى ، وتهديد لهم بسوء المصير ، حيث آذوا نبيهم الذى جاء لهدايتهم وسعادتهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت بعض الشبهات الفاسدة التى تذرع بها الكافرون فى البقاء على كفرهم ، كما حكت ما اقتضته حكمته ـ سبحانه ـ فى إرسال الرسل ، وهددت المصرين على كفرهم بسوء العاقبة .

ثم ساق ـ سبحانه ـ شبهة أخرى من شبهات المشركين التى حكاها عنهم كثيرا ، ورد عليها بما يبطلها ، وبين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، بعد أن بين أن الهداية والإضلال من شأنه وحده فقال ـ تعالى ـ

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤ .

« ومَنْ يهْدِ اللهُ فهُو المُهتَدْ ، ومن يُضْلِلْ فلَنْ تجدَ لهُم أولياءَ من دُونِه ، ونحشُرهُم يَوْمَ القيـامةِ على وُجُوهِهِم عميـاً وبُـكْماً وصُمًّا ، مأوَاهُم جهَنَّمُ كلَّماَ خَبتْ زِدْنَاهُم سعـيراً (٩٧) ذلكَ جزاؤُهُم بأنَّهُم كفَرُوا بآياتِنا وقالُوا أئذَا كُنَّـا عِظامًا ورفاتاً أئِنَّا لمبعُوثُونَ خَلقـاً جديداً (٩٨) أَوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الذى خلقَ السموات والأرض قادِرٌ عَلَى أَنْ يَخلُقَ مِثلَهم ، وجَعل لهم أجـلاً لا ريبَ فيه ، فأبَى الظالِمُونَ إلاَّ كفُوراً (٩٩) قُلْ لو أنتُم تملِكُونَ خزَائِنَ رَحْمـــةِ رَبِّى ، إذاً لأمسَكْتُم خَشْيَةَ الإنفاقِ ، وكانَ الإنسانُ قَتُوراً (١٠٠) .

وقوله ـ سبحانه ـ : ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، كلام مستأنف منه ـ تعالى ـ لبيان نفاذ قدرته ومشيئته .

أى : ومن يهده الله ـ تعالى ـ إلى طريق الحق ، فهو الفائز بالسعادة ، المهدى إلى كل مطلوب حسن ، « ومن يضلل » أى : ومن يرد الله ـ تعالى ـ إضلاله ، فلن تجد لهم ، أيها الرسول الكريم ، أولياء ، أى : نصراء ينصرونهم إلى طريق الحق ، من دونه ، عز وجل ، إذ أن الله ـ تعالى ـ وحده هو الخالق للهداية والضلالة ، على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته .

وجاء قوله ـ تعالى ، « فهو المهتد » بصيغة الإفراد حملا على لفظ « من » فى قوله « ومن يهد الله » وجاء قوله : « فلن تجد لهم » بصيغة الجمع حملا على معناها فى قوله : « ومن يضلل »

قالوا : ووجه المناسبة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما كان الهدى شيئا غير متشعب السبل ، فناسبه الإفراد ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة ، كما فى

قوله - تعالى - : « ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ناسبة الجمع [1]

ثم بين - سبحانه - الصورة الشنيعة التي يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، عميا وبكما وصما .. »

والحشر : الجمع . يقال : حشرت الجند حشرا . أي جمعتهم . وقوله : « على وجوههم » حال من الضمير المنصوب في نحشرهم » . وقوله : « عميا وبكما وصما » أحوال من الضمير المستكن في قوله « على وجوههم » . أي : نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة ، حين يقومون من قبورهم ، ونجعلهم - بقدرتنا - يمشون على وجوههم ، أو يسحبون عليها ، إهانة لهم وتعذيبا ، ويكونون في هذه الحالة عميا لا يبصرون ، وبكما لا ينطقون ، وصما لا يسمعون .

قال الآلوسي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « نحشرهم يوم القيامة على وجوههم » إما مشيا ، بأن يزحفون منكبين عليها . ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال : الذي أمشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم » ...

وإما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها ، كقوله - تعالى - : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » ويشهد له ماأخرجه أحمد والنسائي والحاكم - وصححه - عن أبي ذر ، أنه تلا هذه الآية . « ونحشرهم يوم القيامه على وجوههم » فقال . حدثني الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم » .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٩

وجائز أن يكون الأمران فى حالين : الأول : عند جمعهم وقبل دخولهم النار ، والثانى عند دخولهم فيها ...

ثم قال : وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز ، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمر وهو خائب مهموم : انصرف على وجهه .... وإياك أن تلتفت إلى — هذا الزعم — أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه ، ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك »(١) .

فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الآية التى تثبت لهؤلاء الضالين يوم حشرهم العمى والبكم والصمم ، وبين آيات أخرى تثبت لهم فى هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع ، كما فى قوله - تعالى - : « ورأى المجرمون النار . . . »

وكما فى قوله - سبحانه - : « دعوا هنالك ثبورا » وكما فى قوله - عز وجل - : « سمعوا لها تغيظا وزفيرا » ؟

فالجواب : أن المراد فى الآية هنا أنهم يحشرون عميا لا يرون مايسرهم ، وبكما لا ينطقون بحجة تنفعهم ، وصما لا يسمعون مايرضيهم . . . .

أو أنهم يحشرون كذلك ، ثم تعاد لهم حواسهم بعد ذلك عند الحساب وعند دخولهم النار .

أو أنهم عندما يحشرون يوم القيامة ، ويرون مايرون من أهوال ، تكون أحوالهم كأحوال العمى الصم البكم ، لعظم حيرتهم ، وشدة خوفهم ، وفرط ذهولهم .

ثم بين — سبحانه - مآلهم بعد الحشر والحساب فقال : « مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » .

ومعنى : « خبت » هدأت وسكن لهيبها . يقال : خبت النار تخبو إذا هدأ لهيبها .

أى : أن هؤلاء المجرمين مأواهم ومسكنهم ومقرهم جهنم ، كلما سكن لهيب جهنم وهدأ ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، زدناهم توقدا ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى ، فتعود النار كحالتها الأولى ملتهبة مستعرة .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٧٥

وخبو النار وسكونها لا ينقص شيئا من عذابهم ؛ وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - عز وجل - فالذين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون »[1] .

وفى هذه الآية مافيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان ، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب ، نسأل الله - تعالى - بفضله ورحمته ان يجنبنا هذا المصير المؤلم .

وقوله - عز وجل - : « ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » بيان للأسباب التى أفضت إلى تلك العاقبة السيئة ،

أى : ذلك الذى نزل بهم من العذاب الشديد، المتمثل فى حشرهم على وجوههم وفى اشتعال النار بهم ، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة : أئذا كنا عظاما نخرة ، ورفاتا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب فى تفتتها وتكسرها ، أئنا بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد ,

فالآية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر ، وإنكارهم للبعث والحساب إنكارا لا مزيد عليه ، لذا كانت عقوبتهم شنيعة ، وعذابهم أليما ؛ فقد سلط الله - تعالى - عليهم النار تأكل أجزاءهم ، وكلما سكن لهيبها ، أعادها الله - تعالى - ملتهبة مشتعلة على جلود أخرى لهم ، كما قال - تعالى - « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . . . » .

ثم رد - سبحانه - على ما استنكروه من شأن البعث ردا يقنع كل ذى عقل سليم ، فقال - تعالى - « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم . . . » .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٢ .

والهمزة للاستفهام التوبيخى ، وهى داخلة على محذوف ، والمراد بمثلهم إياهم ، فيكون المعنى : أعموا عن الحق ، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء ، أن الله - تعالى - الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، وهما أعظم من خلق الناس ، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، لكى يحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

إن عدم علمهم بذلك ، وإنكارهم له ، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطماس بصيرتهم ، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر - وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه - وهو الناس - أقدر .

قال الشيخ الجمل ما ملخصه : قوله : « أو لم يروا ... » هذا رد لإنكارهم البعث ، ولما استبعدوه من شأنه ، يعنى أن من خلق السموات والأرض ، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم ... وأراد - سبحانه - .. بمثلهم : إياهم ، فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين : إن الإعادة مثل الابتداء ، وذلك أن مثل الشىء مساو له حاله ، فجاز أن يعبر به عن الشىء نفسه يقال : مثلك لا تفعل كذا ، أى : أنت لا تفعله .

ويجوز أن يكون المعنى أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق عبيدا غيرهم يوحدونه ويقرون بكمال حكمته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة ، كما فى قوله - تعالى - . « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » والأول أشبه بما قبله »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى إنه على كل شىء قدير »[2] .

وقوله - سبحانه - : أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ... »[3] .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٥١ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٢ . (٣) سورة يس الآية ٨١ .

وبعد أن أقام - سبحانه - الدليل الواضح على أن البعث حق ، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن ، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتاً معلوما ما يجريه حسب حكمته - تعالى - فقال : « وجعل لهم أجــلا لا ريب فيه » .

أي : وجعل لهم ميقاتا محددا لا شك فى حصوله ، وعند حلول هــذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : « وما « وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فنهم شقى وسعيد » .

والجملة الكريمة وهى قوله : « وجعل لهم ... » معطوفة على قوله « أو لم يروا ... » ، لأنه فى قوة قولك قد رأوا وعلموا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : علام عطف قوله : « وجعل لهم أجلا » ؟ . قلت : على قوله : « أو لم يروا » . لأن المعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن ، كما قال : أأنتم أشد خلقاً أم السماء »[1] .

وقوله - سبحانه - : فأبى الظالمون إلا كفورا» بيان لإصرارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق .

أى : فأبى هؤلاء الظالمون المنكرون للبعث ، إلا جحودا له وعنادا لمن دعاهم إلى الإيمان به ، شأن الجاهلين المغرورين الذين استحبوا العمى على الهدى .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح ، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة ، فقال - تعالى - : قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا » .

والمراد بخزائن رحمة ربى : أرزاقه التى وزعها على عباده ، ونعمه التى أنعم بها عليهم .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٦٧ .

« وقتورا » من التقتير بمعنى البخل . يقال : قتر فلان يقتر ـ بضم التاء وكسرها ـ إذا بالغ فى الإمساك والشح .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك ، وطالبوك بما ليس فى وسعك من تفجير الأرض بالأنهار ، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت: لو أنكم تملكون ـ أيها الناس ـ التصرف فى خزائن الأرزاق التى وزعها على خلقه ، إذاً لبخلتم وأمسكتم فى توزيعها عليهم ، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم فى العطاء ، مع أن خزائن الله لاتنفذ أبدا ، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك .

قال بعضهم : وقوله : « لو أنتم تملكون » فيه وجهان : أحدهما : أن المسألة من باب الاشتغال . فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر ، لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمرا . فهى كإن فى قوله ـ تعالى ـ : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره » ، والأصل : لو تملكون ، فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه . والثانى أنه مرفوع بكان ، وقد كثر حذفها بعد لو ، والتقدير : لو كنتم تملكون . . . »[1] .

والمقصود بالإمساك هنا : إمساكهم عن العطاء فى الدنيا ، وهذا لا ينافى قوله ـ تعالى ـ : « ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به . . . » لأن ذلك حكاية عن أحوالهم فى الآخرة عندما يرون العذاب ، ويتمنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأى شىء .

وقوله « إذاً » ظرف لتملكون . وقوله « لأمسكتم » جواب لو ، وقوله « خشية الإنفاق » علة للإمساك والبخل .

وقوله : « وكان الإنسان قتورا » أى : مبالغا فى البخل والإمساك .

قال الإمام ابن كثير : والله ـ تعالى ـ يصف الإنسان من حيث هو ، إلا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥١ .

من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال - تعالى - : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين » .

ولهذ نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، وهذا يدل على كرمه - تعالى - وإحسانه . وقد جاء فى الصحيحين : يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه » (١)

وقال الآلوسى : وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التى لا يبلغها الوهم ، حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله - تعالى - التى لا تتناهى ، وانفردوا بملكها من غير مزاحم ، لأمسكوا عن النفقة من غير مقتض إلا خشية الفقر ، وإن شئت فوازن بقول الشاعر :

ولو أن دارك أنبتت لك أرضها إبرا يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة ، ترى التفاوت الذى لا يحصر ... » (٢)

ثم بين - سبحانه - ما يدل على أن العبرة فى الإيمان ، ليست بعظم الخوارق ووضوحها ، وإنما العبرة بتفتح القلوب للحق ، واستعدادها لقبوله ، وساق - سبحانه - مثلا لذلك من قصة موسى - عليه السلام - فقد أعطاه من المعجزات البينة ما يشهد بصدقه ، ولكن فرعون وجنده لم تزدهم تلك المعجزات إلا كفرا وعنادا ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ١٢٢
(٢) تفسير الآلوسى حـ ١٥ ص ١٨١

« ولقدْ آتيْنـا موسَى تِسْعَ آياتٍ بيِّنَاتٍ ، فاسْـأَلْ بَنِى إسْرَائِيلَ إذْ جاءهُم ، فقالَ له فِرْعَوْنُ إنِّى لأظنُّكَ يا موسَى مسْحُـوراً (١٠١) قالَ لقَدْ علمتَ ما أنْزَلْنَا هَؤُلاءِ إلاَّ ربُّ السَّموات والأرضِ بصائر ، وإنِّى لأظُنُّكَ يا فِرعونُ مَثْبُوراً (١٠٢) فأرَادَ أنْ يَستفِزَّهم من الأرضِ فأغرقناهُ ومَنْ مَعهُ جميعاً (١٠٣) وقُلْنَا من بَعْدِه لبَنِى إسْرائيلَ اسكُنُوا الأرْضَ فإذَا جاء وعْدُ الآخرةِ جِئْنَا بِكُم لفيفاً (١٠٤) » .

والمراد بالآيات التسع فى قوله - تعالى - : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... » : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين »[1] .

وقوله - تعالى - : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمـــرات ... »[2] .

وقوله - سبحانه - : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم »[3] .

وقوله - عز وجل - : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين »[4] .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٢ ، ٣٣
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ (٣) سورة الشعراء الآية ٦٣
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٣

والمعنى : لاتظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ماطلبوه منك . وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ... ألخ . لا تظن ذلك :

فإن الخوارق مهما عظمت لاتنشئ . الإيمان فى القلوب الجاحده الحاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه فى نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرا على كفرهم ورجسا على رجسهم . فاصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولوا العزم من الرسل قبلك .

وتحديد الآيات بالتسع ، لاينفى أن هناك معجزات أخرى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول ، أن تحديد العدد بالذكر ، لايدل على نفى الزائد عنه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا القول - المروى عن ابن عباس وغيره - ظاهر جلى حسن قوى ... فهذه الآيات التسع، التى ذكرها هؤلاء الأئمه ، هى المرادة هنا ...

وقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ... وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر، ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحدا .

ثم قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة، قال : سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادى قال : قال يهودى لصاحبه : أذهب بنا إلى هذا النبى حتى نسأله عن هذه الآية : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... » فسألاه: فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -:

لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتسرقوا ولاتزنوا ، ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولاتسحروا ، ولاتأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولاتقذفوا محصنة ، ولاتفروا من الزحف... فقبلا يديه ورجليه.. »

ثم قال : « أما هذا الحديث فهو حديث مشكل . وعبد الله بن سلمه فى حفظه شىء ، وتكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات ، بالعشر الكلمات، فإنها وصايا فى التوراة ، لاتعلق لها بقيام الحجة على فرعون ... »(١)

والحق أن مارجحه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا : ما آتاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من العصا ، واليد ... هو الذى تسكن إليه النفس ، لأن قوله -تعالى- بعد ذلك: « قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ... » يؤيد أن المراد بها ماتقدم من العصا ، واليد ، والسنين .. ، ولأنها هى التى فيها الحجج ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - . أما تلك الوصايا التى وردت فى الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجة على فرعون - كما قال الإمام ابن كثير - .

هذا ، والخطاب فى قوله - تعالى - : « فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم » يرى بعضهم أنه للنبى - صلى الله عليه وسلم- والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وعلى هذا التفسير يكون قوله « إذ جاءهم » ظرف لقوله « آتينا » ، وجملة « فأسأل بنى إسرائيل » معترضة بين العامل والمعمول .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات، وقت أن أرسله الله -تعالى- إلى فرعون وقومه ، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٣ .

عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ماطالعوه فى التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت فى تأييد المدعى .

قال الآلوسى : والمعنى، فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب عن ذلك ، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - فى التثبيت - ، وإما من باب التهييج والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت فى كتابهم . وليس المقصود حقيقة السؤال . بل كونهم - أعنى المسئولين - من أهل علمه ، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم »(١)

ويرى آخرون أن الخطاب لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون السؤال إما بمعناه المشهور أو بمعنى الطلب ، ويكون قوله « إذ جاءهم » ظرفا لفعل مقدر .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقلنا له حين مجيئه إلى بنى إسرائيل : إسألهم عن أحوالهم مع فرعون ، أو أطلب منهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك ، ويخرجوا معك حين تطلب من فرعون ذلك .

والفاء فى قوله : « فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا » هى الفصيحة . إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات مايدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - : ياموسى إنى لأظنك مسحورا .

أى : سحرت فخولط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفا يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لاتدل على تفكير قويم .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٨٤ .

فقوله « مسحورا » اسم مفعول . يقال : سحر فلان فلانا يسحره سحرا فهو مسحور ، إذا اختلط عقله .

ويجوز أن يكون قوله « مسحورا » بمعنى ساحر ، فيكون المعنى : إنى لأظنك ياموسى ساحرا ، عليما بفنون السحر فقد أتيت باشياء عجيبة يشير بذلك إلى إنقلاب العصا حية بعد أن ألقاها — عليه السلام — .

وهذا شان الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ... يرمون أهله — زورا وبهتانا — بكل نقيصه .

وهنا يحكى القرآن الكريم مارد به موسى على فرعون فيقول : « قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » .

أى : قال موسى لفرعون ردا على كذبه وافترائه : لقد علمت يافرعون أنه ماهذه الايات التسع إلا الله — تعالى — خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها — سبحانه — بصورة واضحة جلية ، حتى لكانها البصائر فى كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله « بصائر » حال من « هؤلاء » أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدقى .

وفى هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن موسى — عليه السلام — ليس مسحورا ولا ساحرا ، وأن الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله — تعالى — ، كما قال — سبحانه — : مخاطبا موسى : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين »[1].

(١) سورة النمل الآيات ١٢ — ١٤ .

وقوله : «وإنى لأظنك يافرعون مثبورا» توبيخ آخر لفرعون ، وتهديد له لأنه وصف واحدا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .

ومثبورا بمعنى الهالك مدمر . يقال : ثبر الله - تعالى - الظالم يثبره ثبوراً ، إذا أهلكه .

أو بمعنى مصروفا عن الخير . مطبوعا على الشر من قولهم : ماثبرك يافلان عن هذا الأمر ؟ أى : ماالذى صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى : وإنى لأعتقد يافرعون أن مصيرك إلى الهلاك والتدمير ، بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتيانى بالمعجزات الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى الذى خلقنى وخلقك وخلق كل شىء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ماهم به فرعون ، بعد أن أخرسه موسى - عليه السلام - بقوة حجته ، وثبات جنانه فقال : فأراد أن يستفزهم من الأرض ..

والاستفزاز : الإزعاج والاستخفاف ، والمراد به هنا الطرد والقتل .

والضمير المنصوب فى « يستفزهم » يعود إلى موسى وقومه بنى إسرائيل .

أى : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده ، أن يطرده وقومه من أرض مصر التى يسكنون معه فيها . وأن يقطع دابرهم ، كما أشار إلى ذلك - سبحانه - فى قوله : « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » .

ثم حكى - سبحانه - ماترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى وقومه فقال : « فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ... »

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر، وأن يهلكهم.. فكانت النتيجة أن عكسنا عليه مكره وبغيه، حيث أهلكناه هو وجنده بالغرق، دون أن نستثنى منهم أحدا .

وقلنا من بعد هلاكه لبنى إسرائيل على لسان نبينا موسى - عليه السلام -: اسكنوا الأرض التى أراد أن يستفزكم منها فرعون وهى أرض مصر .

قال الآلوسى : وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ، وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده . وإن لم يثبت فالمراد من بنى إسرائيل ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم . واختار غير واحد أن المراد من الأرض . « الأرض المقدسة ، وهى أرض الشام »[1] .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الظالمين ، وفى توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وفى هذا بشارة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - بفتح مكة . مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - منها ؛ كما قال - تعالى - : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... » ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلما وكرما ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها. وأورثهم بلاد فرعون ...»[2].

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » .

أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذى حدده الله - تعالى-

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٤

لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعا أنتم وفرعون وقومه مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .

واللفيف : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومعناه الجماعة التي اجتمعت من قبائل شتى .

يقال : هذا طعام لفيف ، إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سنة من سنن الله - تعالى - التي لا تتخلف في نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين .

ثم عادت السورة الكريمة إلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وأثنت على المؤمنين من أهل الكتاب الذين تأثروا تأثرا بليغا عند سماعه ، فقال - تعالى - :

« وبالحقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبالحقِّ نزَل ، وما أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ مبشِّراً ونذيراً (١٠٥) وقرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ على الناسِ على مُكْثٍ ، ونزّلْناه تنزيلاً (١٠٦) قُلْ آمنُوا به أَوْلاَ تؤمِنُوا ، إنّ الذينَ أوتُوا العِلْم مِنْ قبلِه إِذَا يُتْلَى عَلَيْهم يخِرُّونَ للأَذْقانِ سُجَّداً (١٠٧) ويقولون سُبْحَانَ ربِّنَا إنْ كانَ وعْدُ ربِّنَا لمفعولاً (١٠٨) ويخِرُّونَ للأَذْقَانِ يبكونَ ويزيدُهم خشوعاً (١٠٩) .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ... » عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله : « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ... » وهكذا طريقة العرب في كلامها ، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ما ذكرته أولا ، والحديث شجون ... »[1]

---

(١) تفسير الالوسى ج ١٠ ص ١٨٧ .

والمراد بالحق الأول : الحكمة الإلهية التى اقتضت إنزاله ، والمراد بالحق الثانى : ما اشتمل عليه هـذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات . . .

والباء فى الموضعين للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير القرآن الذى دل الكلام على أن الحديث عنه .

والمعنى : وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه حكمتنا ، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته .

قال بعض العلماء : بين - جل وعلا - فى هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا القرآن بالحق ، أى : ملتبسا به متضمنا له ، فكل ما فيه حق ، فأخباره صدق . وأحكامه عدل ، كما قال - تعالى - : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبـدل لكلماته . . . » وكيف لا ، وقد أنزله - سبحانه - بعلمه ، كما قال - تعالى - « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » .

وقوله « وبالحق نزل » يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل فى طريق إنزاله ، لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه ، حتى يغير فيه ، أمين لا يغير ولا يبدل ، كما أشار إلى هذا - سبحانه - بقوله : « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين[1] .

وقوله - سبحانه - : « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » ثناء على الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى نزل عليه القرآن ، بعد الثناء على القرآن فى ذاته .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا مبشرا لمن أطاعنا

(١) أضواء البيان جـ ٣ ص ٥٧٥ . للشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله .

بالثواب ، وإلا منذرا لمن عصانا بالعقاب . ولم نرسلك لتخلق الهداية فى القلوب ، فإن ذلك من شأن الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها أنزل القرآن مفصلا ومنجما ، فقال : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

ولفظ : « قرآنا » منصوب بفعل مضمر أى : وآتيناك قرآنا .

وقوله : « فرقناه » أى : فصلناه . أو فرقنا فيه بين الحق والباطل . أو أنزلناه منجما مفرقا .

قال الجمل : وقراءة العامة « فرقناه » بالتخفيف . أى : بينا حلاله وحرامه . . . .

وقرأ على وجماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان: أحدهما : أن التضعيف للتكثير . أى : فرقنا آياته بين أمر ونهى وحكم وأحكام ، ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار . والثانى : أنه دال على التفريق والتنجيم » (١)

وقوله « على مكث » أى : على تؤدة وتمهل وحسن ترتيل ، إذ المكث التلبث فى المكان ، والإقامة فيه انتظارا لأمر من الأمور .

والمعنى : « لقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن ، مفصلا فى أوامره ونواهيه ، وفى أحكامه وأمثاله . . . ومنجما فى نزوله لكى تقرأه على الناس على تؤدة وتأن وحسن ترتيل ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقا عمليا دقيقا .

وهكذا فعل الصحابة - رضى الله عنهم - : فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم متعة عقلية ونفسية فحسب ، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجا لحياتهم ، ويطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه . . . فى جميع أحوالهم الدينية والدنيوية .

---

(١) حاشية الجمل ج ٢ ص ٦٥١

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا » .

وقوله - سبحانه - : ونزلناه تنزيلا » أى : ونزلناه تنزيلا مفرقا منجما عليك يا محمد فى مــــدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه فحسب .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم . وعلى عدم المبالاة بهم ، فقال - تعالى - : « قل آمنوا به او لاتؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ... » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين . الذين طلبوا منك ماهو خارج عن رسالتك ، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين : قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أو لاتؤمنوا به ، لأن إيمانكم به ، لايزيده كمالا ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئا ، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا تلى عليهم هذا القرآن ، - كأمثال عبدالله بن سلام وأصحابه - يخرون للأذقان سجدا ، أى : يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - شكراً له على إنجاز وعده ، بإرسالك - أيها الرسول الكريم - وبإنزال القرآن عليك ، كما وعـــد بذلك - سبحانه - فى كتبه السابقة ،

فالجملة الكريمة : « إن الذين أوتوا العلم ... » تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين ، والضمير فى قوله : « من قبله » يعود إلى القرآن الكريم .

وقوله : « يخرون للأذقان سجداً » يدل على قوة إيمانهم ، وعلى سرعة تأثرهم بهذا القرآن ، فهم بمجرد تلاوته عليهم ، يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - .

وخصت الأذقان بالذكر ، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود ، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله ـ تعالى ـ وتأثرهم بسماع القرآن الكريم :

ثم حكى ـ سبحانه ـ مايقولونه فى سجودهم فقال : « ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » .

أى : ويقولون فى سجودهم ، ننزه ربنا ـ عز وجل ـ عن كل مايقوله الجاهلون بشأنه ، إنه ـ تعالى ـ كان وعده منجزا ومحققا لا شك فى ذلك .

ثم كرر ـ سبحانه ـ مدحه لهم فقال : ويخرون للأذقان يبكون ، ويزيدهم، أى سماع القرآن ، خشوعا ، وخضوعا لله ـ عز وجل ـ .

وكرر ـ سبحانه ـ خرورهم على وجوههم ساجدين لله ـ تعالى ـ لاختلاف السبب ، فهم أولا أسرعوا بالسجود لله تعظيما له ـ سبحانه وشكراً له على إنجازه لوعده .

وهم ثانيا أسرعوا بالسجود ، لفرط تأثرهم بمواعظ القرآن الكريم .

فأنت ترى هاتين الآيتين قد أمرتا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإعراض عن المشركين ، وباحتقارهم وبازدراء شأنهم ، فإن الذين هم خير منهم وأفضل وأعلم قد آمنوا .

وفى ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكأن الله ـ تعالى ـ يقول له : يامحمد تسل عن إيمان هؤلاء الجهلاء ، بإيمان العلماء .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين أن البكاء من خشية الله ، يدل على صدق الإيمان ، وعلى نقاء النفس ، ومن الأحاديث التى وردت فى فضل ذلك، ما أخرجه الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بآيتين دالتين على تفرده - سبحانه - بالتقديس والتعظيم والتحميد والعبادة، فقال - تعالى - :

« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرحمن ، أيًا ما تدْعُو فلهُ الأسماء الْحُسنَى ولا تجْهَرْ بصَلاتِك ولا تخافِتْ بها وابتغِ بينَ ذلك سبيلاً (١١٠) وقُلِ الحمدُ للهِ الذى لم يتخذْ ولداً ، ولم يكُنْ لهشريكٌ فى المُلْكِ، ولم يكُنْ لهُ وَلِيٌّ من الذُّلِّ ، وكبِّرهُ تكْبيراً (١١١) .

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : قل أدعو الله أو ادعو الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى .. ، ذكروا روايات منها : ما أخرجه إبن جرير وإبن مردويه عن إبن عباس قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكة ذات يوم فدعا الله -تعالى- فقال: يا ألله، يارحمن، فقال المشركون : أنظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين فنزلت[1]

ومعنى : أدعوا . سموا ، و أو » للتخيير . « وأيا » إسم شرط جازم منصوب على المفعولية بقوله : « أدعوا » والمضاف اليه محذوف ، أى : أى: الأسمين. « وتدعو » مجزوم على أنه فعل الشرط لقوله «أيا» ، وجملة « فله الأسماء الحسنى » واقعة موقع جواب الشرط ، و « ما » مزيدة للتأكيد . والحسنى : مؤنث الأحسن الذى هو أفعل تفضيل .

والمعنى : قل يا محمد للناس : سموا المعبود بحق بلفظ الله أو بلفظ الرحمن باى واحد منهما سميتموه فقد أصبتم ، فانه - تعالى - له الأسماء الأحسن من كل ما سواه وقال - سبحانه - : « فله الأسماء الحسنى » للمبالغة فى كمال أسمائه - تعالى - للدلالة على أنه ما دامت أسماؤه كلها حسنة ، فلفظ الرحمن كذلك ، كل واحد منهما حسن .

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ١٦ ص ١٩١

وقد ذكر الجلالان عند تفسيرهما لهذه الآية ، أسماء الله الحسنى ، فارجع إليها إن شئت [١] .

وقوله ـ سبحانه ـ : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ، تعليم من الله ـ تعالى ـ لنبيه كيفية أفضل طرق القراءة فى الصلاة .

فالمراد بالصلاة هنا : القراءة فيها . والجهر بها : رفع الصوت أثناءها والمخافتة بها : خفضه بحيث لا يسمع . يقال : خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : ولا تجهر يا محمد فى قراءتك خلال الصلاة ، حتى لا يسمعها المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها ، حتى لا يسمعها من يكون خلفك ، بل أسلك فى ذلك طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة .

ومما يدل على أن المراد بالصلاة هنا: القراءة فيها،ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس .

قال : نزلت ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختف بمكة : فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فأمره الله بالتوسط .

وقيل . المراد بالصلاة هنا : الدعاء . أى : لا ترفع صوتك وأنت تدعو الله ولا تخافت به . وقد روى ذلك عن عائشة ، فقد أخرج الشيخان عنها أنها نزلت فى الدعاء .

ويبدو لنا أن التوجيهات التى بالآية الكريمة تتسع للقولين ، أى :أن على المسلم أن يكون متوسطا فى رفع صوته بالقراءة فى الصلاة ، وفى رفع صوته حال دعائه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية : : وقل الحمد لله الذى لم لم يتخذ ولدا . . . ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٦٥٦

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - الحق الكامل، والثناء الجميل، لله - تعالى - وحده : الذى لم يتخذ ولدا ، لأنه هو الغنى ، كما قال - تعالى - : قالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغنى ، له فى السموات وما فى الأرض . . »[١]

« ولم يكن له » - سبحانه - « شريك فى الملك » بل هو المالك لكل شىء ، ليس له فى هذا الكون من يزاحمه أو يشاركه فى ملكه أو فى عبادته . كما قال - تعالى - : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » .

وكما قال - عز وجل - : ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون[٢] .

« ولم يكن له ولى من الذل » أى : ولم يكن له - سبحانه - ناصر ينصره من ذل أصابه أو نزل به ، لأنه - عز وجل - هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة، ومذل الطغاة ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

« وكبره تكبيرا » أى: وعظمه تعظيما تاما كاملا، يليق بجلاله عز وجل .

قال الإمام ابن كثير : عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية . « الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا . . . »[٣] .

ثم قال ابن كثير : وقد جاء فى حديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سماها آية العز[٤] .

وبعد فهذا تفسير لسورة الإسراء نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا

---

(١) سورة يونس الآية ٦٨ (٢) سورة الإسراء الآية ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١ (٤) تفسير ابن كثير جـ ٢٠ صـ ١٣٩

لوجهه ، ونافعا لعباده ، وشافعا لنا « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ
المـــوافق ١٦ من فبراير سنة ١٩٨٤ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الإسراء»